رواية

حارس الخديعة

خالد خليفة

نوفل

حارس الخديعة

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2020 عن نوفل، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2020
بناية أنطوان، الشارع 402، المكلس، لبنان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأي وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: © Magdalena Russocka / Trevillion Images
تصميم الداخل: ماري تريز مرعب
طباعة: المطبعة العربية

رقم الإيداع (النسخة الورقية): 978-614-469-519-7
رقم الإيداع (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-520-3

١

دومًا.

أفتح الباب ورائي، أخلع من قدميّ أخطاء الحذّائين، وأدخل خديعة المدينة. أعرّش على النوافير، أرى صورتي في الماء. وجهي رجراج، أتأكّد من صحوي، من قلقي. أمدّ يدي، أنتقي من الطحالب الأخضرَ الباهتَ، اللون الذي أحببته حين كان يترامى ثيابًا وشاشًا في صندوق أمي الموضوع بعناية فائقة في صدر الغرفة، مثقلًا برائحة النفتلين ومدجّجًا بالأقفال.

في الثانية عشرة ليلًا، أنتقي عناق الصفر وأدخل دمشق، حيث القلاع مهدّمة والقباب مستكينة تحت أكداس الغبار، يتراءى لي جسر فكتوريا مظلّة للوقت وهمزة للبيارق المنكّسة، فأكوّر الجهات بأصابعي وأرمي أوراق النعي لصدإ المدينة.

المدينة التي جثمت على بوّاباتها سبعة قرون وفي يدي صورة الملكة، غطّاني الغبار، داستني حوافر آخر رُسُل الخلفاء العبّاسيين، ومن ثمّ العثمانيين. سرقوا ردائي، عصبوا عينيّ، وقالوا:

– انتظر سبعة قرون أخرى.

مرّت جحافل الترك ثمّ الفرنسيين ثمّ لست أدري، تأكدوا جميعًا من إغماض عينيّ ومن عريي وفمي الطافح بالنمل وأذيال ثوبي المهترئ، وقالوا:

– دعوه سبعة قرون.

صرخت مرّة – مرّة واحدة، فأتت دروب النمل إليّ وقالت: هات قدمك.

قلت: سأخلع أخطاء الحذائين وأتزوّج الملكة.

قالوا: ادخل.

قلت: البوّابات مقفلة.

قالوا: ادخل.

نهضت، نفضت ثيابي وتذكّرت صورة الملكة، النشيد الوطني. دخلتُ من الباب – الباب الذي من فراغ، اصطدمت بجدار أو نيزك أو...

ضحكوا وبكيت على أنّني نسيت شكل أصابعي وطعم الخطوة، بكيت حتى طفحت مثانات ذكورهم، نهضت قامة مسروقة من الاستقامة وأمام ذلك الجدار، تبوّلت بهدوء من يقطف وردة. كان النمل يتشاور، كان الكلّ يتشاور، الحرّاس والجموع ذات الوجوه المسطّحة، والحشود التي لم أرها إنّما سمعت أصوات لغطها البعيد تعلن:

سبعة قرون على البوّابة.

وصوت آخر يتعالى:

سبعة قرون أخرى ستتناساه الكائنات الأخرى ويفقد هيكله العظمي.

جلست، مرّت قوافل التوابل والمهرّبين، قوافل النسيج والفولاذ الدمشقيّين، مرّت قوافل النعوش، صورة أبي ارتسمت أمامي بكلّ

ملامحها الكئيبة. أمي بأثوابها المزركشة، وخالتي بجلال ابتهالها أن يحفظ لها رائحة النقّاش التركي، تبتهل خالتي وأنا ببلاهة من أضاع اسمه أنتظر أن تفتح البوّابة، أعدّ أصابعي وأوقن أنّ الموت متشبّث بالأظافر.

قربي على الأرض، الأرض النديّة صورة الملكة، وآثار بصماتي على الطرق التي لم أسر عليها. وقفت فوق رأسي مجرّة بينما كنت أعدّ النجوم في الليل الصافي، شممت رائحة أمي وتذكّرت «أنّ الأرض كرة يتقاذفها أزواج الملكة وترتدّ أخيرًا إلى حضنها الوثير». اقتربت صورة أمي، وقالت:

– ستبقى يا خالد طائشًا وطفلًا وابن حرام.

رمت شالها، شالها الذي خنقت به أبي يوم ولدتني وأمام البوّابة، وقفت تنتظر رجال الملك.

قلت: أين سرّتكِ؟

قالت: فقدتها في الطريق إلى دمشق.

من ينام الآن ويوقظ يديّ؟ من ينام الآن ويرمي على الملكة آخر وردة؟ من ينام الآن ويوقظ إغفاءة حارس المقبرة؟ من يفتح البوّابة ليدخل المتاهة ويصرخ في الريح أن تكفّ عن الريح قليلًا.

النمل يتناسل من فمي موقنًا أنّني آخر كفرة السلالة، وشمي على يدي. يدي التي ستصافح الملكة، ستعرّي الملكة، ستضاجع الملكة، وتدخل متاهة العدم.

أمي أمام البوّابة وطيور أبابيل هائمة فوق رأسي، أفتح نافذة في الفراغ، وأنتظر أصص الورد وثياب الشهداء. تحت النافذة، يمدّ رجل لسانه لامرأة خلعت قرطيها وتخلّت عن عقّتها، أتنفّس عبق النوم في الحفيف وأميل على عنق النهر البعيد كي ألتقط صورتي وظلال قامة الملكة، أتزيّن بأقمطة الموت وأوقظ المسافة إلى النرجس،

النرجس الأصفر كالموت أو كالخديعة. من الدرب الخالي، يأتي آخر الليل رجل وامرأة ونافذة وباب، ينصبان الباب، يغلقان النافذة، يغلقانها ويدخلان. يعلو اللهاث فتراودني قصّة الحنين، أكتب على التراب اسمي ثمّ أمحوه. يخرج الرجل من الباب يدوس اسمي أي يدوس الهواء واللاشيء، فأحتفل بموت اسمي وبياض ذاكرتي، تخرج المرأة وتُنزل النافذة، تحمل الباب وتمضي، تاركة وراءها قطرات منّي وشراشف ودفئًا، دفئًا غمرني. الرجل يدخّن، يُخرج من جيبه مشنقة، يعلّقها في مسمار السماء ويُدخل رأسه، يدخل رأسه، يتدلّى، السيجارة مشتعلة في فمه ويده تهزأ بالدائنين وقيظ الفلاة، بحقول اليقطين ومؤخّرات الدجاج الرخوة. أعود وحيدًا كما أنا دومًا، تنزل الجثّة من على مشنقتها. تجلس قربي والسيجارة مشتعلة، اليد باردة والأظافر مقطومة، أصافح الذي كان رجلًا وأدعوه إلى الجلوس، يتربّع على الأرض قربي وتحاذيني رائحة الموت، أسمع صوته متهدّجًا حزينًا، والكلمات تخرج من فمه مع دخّان سيجارته متناثرة وبطيئة، ثقيلة: نم قليلًا قبل أن تمضي القرون السبعة.

نطق بهذه الكلمات وصمت. قلت له حين رأيته يتمدّد:

— هل تحتاج كفنًا يا سيّدي؟

— ...

— هل تحتاج كفنًا يا سيّدي؟

لفّنا السكون، ورأيت تَمدّده مهيبًا على الأرض النديّة، عاد جثّة وضحكة مستهزئة مرسومة على شفتيه. من يوقظ الملكة الآن ويتركني كي أنام قليلًا ووحيدًا كما لم أكن من قبل؟ أزرار الورد والأكفّ الباهتة، العيون الذابلة والخطوات الخاسرة، أرمي ورائي الأناشيد القديمة وأقتل الذاكرة المحايدة.

قربي جثة الرجل، وفي يدي صورة الملكة والبوابات مغلقة. الامس فزع التثاؤب وأسأل الجنود المحمّلين بالشتائم:

– أين طريق المقبرة؟

تقترب أمي من أثوابي المحترقة، تتلمّس رأسي بيدها وتترك لي عنوان قبر أبي «الثالث إلى اليمين وأنت داخل إلى تلك المقبرة»، وتشير بيدها إلى باب كأنّني أعرفه، أجرجر خطواتي، أدخل من الباب العتيق نفسه الذي كان أبي يصرخ أن أغلقه حين كنت نطفة، أجلس قرب الشاهد وأنتظر.

يخرج أبي رجلًا مكلّلًا بالعار، عاري وعار أمي التي قتلته وعار أختي التي ذهبت مع بائع الأمشاط إلى ما وراء البيادر ولم تعد إلى المنزل الفسيح تاركة الحيرة وحزن أبي الدائب وزجاجات غباره المركونة على رفّ الإصطبل من دون تنظيف. أختي ذات العينين الواسعتين والصدر الذابل والصوت الحنون، كانت تحبّ الأمشاط ومولعة حدّ الافتتان بجمعها في «كيلة» حليب فارغة تغلقها بعناية. وتخبّئها في صندوق أمي. أمشاط من الألوان والأنواع كافّة مغلّفة بأقمشة ملوّنة ومصفوفة بعناية. أوّل مرّة أتى بائع الأمشاط إلى ساحة القرية، كان شعر أختي قد طال كثيرًا وحلمتاها قد شمختا من تحت الثوب المحبوك على جسدها بقوّة وعناية. ثوبها الوحيد المعدّ للأعراس واستقبال بائع الأمشاط ذي العينين الخبيثتين والحلوتين كما أكّدت أختي. جلس في العتبة أوّل مرّة وبدأ يصفّ الأمشاط، هذا من العظم، هذا بلاستيك، وهذا من بلّور للعرايس، وينهي كلماته بغمزة لأختي التي تمدّ يدها وتتفحّص الأمشاط، وعينا الرجل ماثلتان على خالتي المسترخية والمنتبهة إلى احمرار خدّي أختي. في ما بعد، بدأ بائع الأمشاط يخلع حذاءه ويجتاز العتبة، يرتشف الشاي ويعلّم أختي كيف تمشّط شعرها، تغار خالتي وتتذكّر النقّاش التركي

وتسكت. أبي لم يحبّ بائع الأمشاط وأمي لم تمانع كثيرًا أن يمدّ يده إلى فخذ أختي، باحثًا عن شعر ليمشّطه وأن يذهبا إلى ما وراء البيادر. بعد رحيل أبي ومجيئي، جهّزت أختي أمشاطها، لفّتها بعناية في صرّة صغيرة مع قميص نوم وحيد كنت أراه معلّقًا على حبل الغسيل كلّ يوم جمعة بلونه الأحمر الشفّاف. رحلت أختي ولم تعد. غيابها لم يقلق أحدًا سوى خالتي التي غدت وحيدة وبغل أبي الذي بات الجميع ينسون معلفه فارغًا من دون شعير وتبن.

يقترب أبي منّي، أراه من بعيد يجلس على حجر أبيض ويضحك أسمع صوته فأتلعثم...

– من أنت؟

– لا أدري، ربّما سراب، ربّما وهم، ربّما خديعة.

كأنّ أبي يعرف ما قلت أو ما سأقول، ويعود صوته للرنين:

– ناولني يدك.

– إلى أين؟

– إلى دمشق.

– دمشق؟

– نعم، دمشق.

– لكنّني هنا منذ سبعة قرون، أنتظر دمشق.

قاطعني بلهجة الواثق ومدّ يده نحوي:

– أعرف... هيّا ناولني يدك.

دمشق تنام لتنهض في اكتناز امرأة وعناق الصفر، أقرأ الأسئلة المخاتلة وأتهجّى مع أبي زنى النساء، خوف الرجال، هدوء السماء، قحط الحديقة، هزيمة الحجر الأصفر، فراغ القلاع المهدّمة، سيوف الولاة الصدئة، قلائد الأمويين، العباسيين، العثمانيين.

يدي، يدي الناقصة سلامية بيد أبي المائعة، نقف سويًا أمام باب ضخم ينفتح بنوافير ماء وأصوات محتفلة بعيد الكفن.

ننهض، نوغل في الفراغ، من خطواتي يتصاعد غبار، ومن زبد خطواتي ندخل دمشق. على حجر أتكئ قليلًا. يمسك أبي بشجرة زيزفون ويهزّها فأتابع الدخول وحيدًا مكلّلًا بغبار الطلع وأجنحة الفراشات، أمضي. دمشق، ها دمشق أخيرًا.

سبعة قرون مضت، وأنا أمام البوّابات أستجدي الحرس وأبواب الخليقة، فمن يطلق قدميّ من عقالهما ويرسم بالأزرق على وجهي شكل الأنهار؟ من يمدّ يده كي تغدو دمشق قريبة؟ من يوقظ المسافة بيني وبين الليل؟

ألتفت خلفي، يصفعني مشهد الموتى الملوّحين بأكفانهم والعائدين إلى مقابرهم. أبي في المقدّمة وخلفه قافلة من سراب ومحاربين أشاوس، شهداء بثيابهم المبلّلة بالدم ورائحة الرصاص يلوّحون لي، ينتابني الفزع. أهتف من وحدتي:

– خذوني معكم، خذوني معكم.

أتحرّك فأقع. الآن الثانية عشرة ليلًا، دمشق امرأة تمارس الغواية مع الجسور والفضاءات المغلقة، أمضي مع الذاهبين، أصل إلى باب البيت وحيدًا، قبل أن أدخل أخلع حذائي وأنسى وصايا الأموات. الممرّ صامت، غارق في الصمت. رائحة ثيابي العفنة التي خلعتها منذ سبعة قرون. المشجب نفسه الخدوش نفسها، الابتهال العتيق للسقف، للنوافذ، سيفي الصدئ وحمّالات الخناجر. تخرج أمي بثوب شفّاف وراءها رجل يضيع عمره في الأوهام يرتدي قميصه فأتغاضى عن ارتباكه وأسمع صوتها:

– أتيت؟

– ...

– من فتح البوّابات المقفلة؟

– أبي.

– من أبوك؟

– أيقونة تحطمت.

– إذًا؟

– ماذا إذًا؟

– اغتسل، وارحل قبل أن يراك رجال الملكة.

الملكة، الملكة. نسيت الصورة فجأة في جيبي. أدخل الحمّام، أنزع ثيابي، وأكتشف أنّني عارٍ تمامًا ومسطّح على المسامير وفي الخدوش أعلّق ما تبقّى منّي.

ما تبقّى منّي بضعة أوهام، أسكب الماء البارد أفتح مسامّي. قهقهة أمي خلف الباب، أسمع صوتها، صوتها العالي الرنين كالنحاس.

– إنّه يبحث عنّي.

أسمع نحنحة الرجل وإغلاق الباب بعد قليل. صورة الملكة أعلّقها على الجدار، تتنفّس مسامّي الماء وتنفتح على الملإ، على البراري التي نسيتها أو تناسيتها، سبعة قرون وأنا على حجر قرب البوّابة، صورة الملكة، الملكة ربّة الجسور، ربّة الينابيع، وذات الجسم المفعم بالأعشاش وخديعة الملوك.

أخرج من الحمّام عاريًا أهدهد أعضائي، عاريًا تمامًا كأنّني أعلن بدء الخليقة. تأتيني أمي برداء، وتقول:

– اخرج الآن.

صورة الملكة بيدي، وذكرى رحيل أختي التي غابت ذات ليلة مع بائع الأمشاط والمرايا.

– أمي... أين أختي؟

– تبخّرت.

– هل أنا وحيد؟

– نعم، والآن يجب أن ترحل.

أخرج مع الحشود.

الصباح، الصباح في دمشق، يا للتعمة الرائعة! يا للبهجة! إنّني وحيد، رجل وحيد في صباح دمشق! القوافل تمرّ قربي ولا أحد يشتري حقدي، وحدتي، وهذياني الأخير.

صباح دمشق غبار ووقع أقدام ثقيلة، عشب متمارض ونهر يحاول الهنهنة، أقترب، يبتعدون. أبتعد، فيبتعدون. رجال الملك بأثوابهم الملمّعة، ووجوههم الشرسة، بنادقهم، جيوبهم المثقوبة، فرارهم المعطّل، أسأل رجلًا قربي:

– أين الملكة؟

ينفض يديه، يشتمني ويمضي، أسأل امرأة:

– أين الملكة؟

– أنا الملكة.

– أنت؟

– نعم، أنا الملكة.

– إذًا تعالي، أريد مضاجعتك.

– أين؟

– تحت الجسر.

– لا أريد، الهواء هناك ثقيل.

– في المقبرة.

– الهواء هناك أصفر.

– في الحديقة.

– هيّا.

سرنا، رجل وامرأة يرشحان غواية، يدي تمسك بالصورة الباهتة للملكة. المرأة قربي كأنّها تقفز أو تدندن، تهدأ قليلًا، وتسألني:

– أين كنت؟

– أمام البوّابات.

– لِمَ لم تدخل؟

– منعني الهواء.

وصلنا الحديقة، في الحديقة كراسٍ فارغة وأشجار معطوبة. تمدّدت الملكة على العشب وأنا قرب شجرة زيزفون أنتقي أوراقًا خضراء لأغطّي نهديها. نهداها يعبثان بالضوء، بخيالات الظهيرة، ويجعلانني رجلًا ذا احتمالات كثيرة. قالت:

– تعال.

– إلى أين؟

– إليّ.

– أريد الملكة، أبحث عنها منذ سبعة قرون.

– أنت رجل الفجائع والوهم، أنا الملكة.

– لستِ الملكة... الملكة فرجها أخضر، وأنت امرأة من الحاشية تشبهين أمي وخالتي وأختي وزوجتي التي غرقت في النهر، وأنا أضحك من الجسر المنهار على رؤوس السيّاح.

– أنا الملكة.

– ...

تسمّرت قدماي في العشب بعد أن اكتشفت الخديعة حين خلعت ثيابها وتمدّدت، فغدوت أقرب إلى رجل كالفاجعة. مدّت يدها وجذبتني نحوها، مضت تمارس الهنهنة وأنا من دون ملامح أغرق في الطمي ورذاذ العشب النديّ حقًّا. كان صدري مفتوحًا للهواء ويداي مشرّعتين. صعدت وهبطت. أنفي مزكوم بروائح الأشجار المعطوبة.

فرحت بتسرّب ذاتي إلى العشب، العشب الذي من هلام. أمسكت المرأة برأسي قرّبته من نهدها الأيسر، أطلّت عليّ ومن بديها سفحت على جسدي سائلًا برّاقًا وتمدّدت قربي، سألتني وهي تدخّن سيجارة انتزعتها من تبغي المفروم:

– من أنت؟

– لا أدري...

– ودمشق؟

– لا أدري.

قهقهت متعالية عن ثيابها المقذوفة على أغصان الشجرة بفوضى محبّبة إلى نفسي.

قالت: لقد خدعتك أنا لست الملكة.

قلت: أعرف وأبحث عن الملكة.

الصورة بيدي. المرأة تتمرّغ على العشب مرتوية، لامعة الجسد، الزمن واقف على حدود شهوتها. من الحديقة إلى الشارع، أعبر وحيدًا متدثّرًا بفوضى روحي المضطربة التي أحسّ بأنّها قد سالت مع المياه القذرة إلى المجارير. روحي المدنّسة بالعار، روحي التي تهوي، والتي حاولت الإمساك بعناقيدها، تسرّبتْ وتركتني خاويًا، خاويًا، خاويًا كما لم أكن خاويًا، في يدي صورة الملكة وأمامي الدروب التي لم أكتشف بعد. المساء في دمشق، قبور الأولياء وسيقان النساء المنتوفة الشعر، صدورهنّ المزدانة بالحلي والشهوة المؤجّلة، أياديهنّ البيضاء، رنين صمتهنّ على بلاط الرصيف، هل أوغل بعيدًا، أقرفص على الناصية أراقب البشر سبعة قرون كي أصل ولا أصل؟ سبعة قرون وأنا أنتظر ليل دمشق. تمرّ أمي من أمامي وأنا مستند إلى عمود دالية، تفصفص البزر وتنتقي الثياب، تقهقه، وتقذف بيد رجلها في الهواء. أرى وجهها المستطيل متدلّيًا رخوًا،

رغم المشدّات ومحاولات التثبيت. تلتفت أمي إليّ وأنا أكابد البكاء، وتقذف لي بما تبقّى من مودّة. أرى في عينيها ذكرى الفراش الذي مدّدتني عليه، غسلتني من كراهية الفاتحة، رشّت الملح فوق جسدي الصغير كسرطان الماء أو كجرو حديث، وزغردت، نعم زغردت، عمّتي زغردت، أختي وخالتي ونساء الأحزان، قامت عارية تمامًا. عمري نصف ساعة، الأصوات تزعج صمت عالمي، الذباب يهيم فوق أنفي الصغير، قامت. أمسكت بشالها وخنقت أبي الممدّد قرب النافذة يدخّن، منتظرًا البغال أن تعود من حرث الأرض.

خنقته ولم يعترض، استرخى جسده، ثمّ علمت أنّ سيجارته انطفأت وجسده برد. غطّتني بالشال نفسه واستدعت الرجال ليحملوه إلى المقبرة.

لم أفهم وأنا أدخل ساعتي العاشرة من يومي الأوّل لماذا كان الرجال يبكون وينظرون إلى أمي ملوّحين من وراء الحشد، وملمّحين إلى إمكانية قيامهم بالواجب. عادت البغال وأبي كان قد رحل على باب خشبي مغطّى بحرام صوفي ورأسه راقد على وسادة بتّ أنام عليها في ما بعد، وكم أحببت النوم عليها. حيث أضع رأسي الشبيه برؤوس الآخرين لكنّه مدوّر بطريقة مميّزة وله ذؤابة! أنام، أنام. في يومي الأوّل، قالت أمي:

– سيكون نبيًّا وزنديقًا، سيكون طيّبًا وشرّيرًا، وسيتزوّج الملكة.

قالت لي أمي في ما بعد وأنا واقف أمام عمود الكهرباء وهي تمسك بيد رجلها:

– اذهب إلى هناك... هناك الملكة.

أشارت بيدها نحو الشمال وتابعت طريقي، كحلم تراءت لي الهناك، آه هناك! من يوقظ ذاكرتي المعطّلة الآن ويقصّر دربي، هناك الشمال ودروب البغال، قبر أبي وجسد خالتي الأبيض حين تحلم

ثوبها وترتدي البكاء، تتوهّج بالحمرة حين تضاجع الأعواد وأنا أراقبها من ثقب الباب ثمّ أدخل وأصبح عودًا.

هناك البراري الشاسعة، الركض وراء الأحصنة، الاختباء بين أدغال الحنطة وتكسير رقاب عصافير الدوري على حجر. هناك الأعشاش والأشجار اليانعة، ذلك البيت الذي ولدت فيه، طشت الفسيل وحبل سرّتي المرمي للكلاب.

هناك، هناك، وكمن مسّه تيّار حلم أزرق، استيقظت وبدت الشوارع احتمالات كوابيس ووجوه البشر مسطّحة وهي تمارس الخديعة والصلاة على الجهات المجهولة.

– من هناك؟

صرختُ، وأمي تقترب من منعطف أعرف أنّها ستدخله مع رجلها، لم يصل صوتي، ضاع صوتي، حباله تمزّقت وأنا تمرّغت على مخدّات السكون والهلام، مضيت ودمشق شوارع مهجورة، أرض حزينة نسيت سلالها على عتبة النهار، تسلّم الأكفان للنعوش، وتسأل معي:

– أين طريق المقبرة؟

المقبرة ليست بعيدة، قرب السور العتيق، داخل الأسوار، في الحواري الضيّقة، حيث هناك البيوت المشعشعة بالموزاييك ورائحة البهار. أسير وحيدًا ومن صدى خطواتي أسمع نحيب الدود الأبيض والأصفر، انهيارات الشواهد، صوت الجماجم وتكسير العظام، الصدى يمتلئ بي، يحفّ بأهدابي المتساقطة، يصمّ أذنيّ. أتابع الدرب المنسوج في ذاكرتي من خيوط الغبار، خطواتي مفقودة وأنا مغربل. عند أوّل الناصية، أراقب رجلًا يشبه والدي قبل أن يبرد جسمه وتعود البغال من حرث الأرض.

قبل ذلك بعشر سنوات، أجلسه رجل على حجر أبيض وأدخل رأسه في كوّة قماش أسود، التقط له صورة وكان أبي مذهولًا ينظر إلى أعلى المئذنة، قال له:

– ذكرى لولدك.

أبي أحبّ هذه الكوّة السوداء، فأصبح دومًا يقف أمام رجال الكوى السوداء كلّما غادر إلى حلب، وقرب ساعة باب الفرج قريبًا من بائعي اللحم وصحون الفاصولياء الملوّثة بالذباب وأظافر الخدم، يقف ويدفع نصف نقوده ليلتقط صورته ويمضي فرحًا، قالت أمي:

– هذه صورته قبل أن تولد بأربع سنوات... هي لك.

وعلى المزبلة، قذفت بكلّ الأشياء الحميمة إلى فضائه، دلّة القهوة الصغيرة، رداء الجوخ الأسود المتّسخ، الراديو الصغير الذي لم يفارقه، بردعة الحمار الأبيض، سرج البغل البنّي، مشرب الدخّان الطويل المصنوع من أغصان التين، أجراس المراييع، مصحف قديم مهترئ، عصًا يتوكّأ عليها لا تفارقه، بضع ليرات فضّية عثمانية، صورة زعيم عربي، وبعض صور له بوضعيات وألبسة مختلفة، يقترحها المصوّرون ويوافق أن يكون فارسًا، شرطيًّا، ضابطًا فرنسيًّا، ثمّ ضابطًا عربيًّا، أميرًا وحتى فلّاحًا، ودومًا نظرته إلى المئذنة وإلى ساعة باب الفرج في حلب، قذفت بكلّ ما تبقّى منه إلى المزبلة وداست بالأقدام عصاه التي كانت تعتقد أنّ امرأة كردية أهدته إيّاها بعد أن أحبّته في بازار عفرين.

تذكّرت الصورة، الملامح الباهتة، المستكينة، العينين المحايدتين المشعّتين بفرح دفين مدهش، القفص الصدري الهزيل وتجاعيد الوجه.

كان الرجل يبتسم لي كلّما اقتربت، ويلوّح بيده للفلاة المنتهية إلى الشارع الطويل.

اقتربت، وتوقّفت حين رأيت ظلّي أمامي.

– هل أنت أبي؟

– لا، أنا حارس البوّابات المقفلة.

– وأين هي البوّابات المقفلة؟

أشار إلى الفلاة ولكزني لأبتعد. أحسست بالغبطة لسماعي صوته، سبعة قرون مضت، لم أسمع صوت رجل حقيقي تتحشرج الكلمات في بلعومه وتخرج مثقلة بدخّان السجائر، وقفت جامدًا كالأعمدة الرومانية أحدّق في بهتان البؤبؤ ويديه الصفراوين، وعاد صوته أكثر حدّة:

– ابتعد.

– ...

– ابتعد.

– ...

تناساني الزمن حتى تعفّن صوتي وعرّش الصدأ في بلعومي المجوّف.

مدّ يده، وفتح بوّابة مقفلة، وقال:

– هيّا اخرج.

مرّة أخرى خارج دمشق، الأسوار حولي، الحرس وخدوش النمل. إذًا، ضيّعت دمشق، ها قاسيون من بعيد، أرى عمامته المغطّاة بالأحجيات وجدران أعلى بيوت «ركن الدين» منارة بالظلال.

الدرب أعرفه، سبعة قرون لم أطأ حصاه ورمله، رجلاي مشقّقتان، تعلّمتا الانتظار وصدري مفتوح للهواء وقرون الماعز. درب البيت القديم، درب أبي، درب أمي وأختي التي ذهبت مع بائع الأمشاط ولم تعد، فحزنت خالتي وعادت لسكب الماء في العتبة والوقوف عارية أمام المرآة.

القمر ينزف والنجوم تنفض غبارها ويداي الوعاء، الصدا والخطوات الضائعة، تذكّرت أغنية أحبّها، كانت أختي تدندنها حين يغيب بائع الأمشاط أو يتأخّر عن موعده أوّل كلّ يوم جمعة من الشهر، شممت رائحة القيح من إصبعي المقطومة، التي قطمت على أوّل حجر مدبّب، الدمامل بين أصابعي تمنع خطواتي من الضياع والدرب أمامي طويل، تأتي أمي من اللامكان وتمسك بيدي، تذكّرت صورة الملكة فجأة، كيف أنساها؟ أنّبت نفسي على هذا النسيان، أخرجتها من جيبي، اعتذرت منها بودّ صامت وتمعّنت في الملامح الغائبة، أفلت يدي من يد أمي وأعود راكضًا إلى دمشق، ركضت، ركضت، دست السوسن وشقائق النعمان، الحصى وروث بغال القوافل، اصطدمت بالبوّابات المغلقة والهواء الثقيل، فتح حارس البوّابات قفلًا سمعت قلقلته وأطلّ من نافذة صغيرة، قائلًا:

— عد... ارحل... دمشق نسيت طعم النهر.

— أريد رؤية الملكة... فأنا سأتزوّجها.

— الملكة ليست هنا... الملكة هناك.

— تنتظرني منذ سبعة قرون وعطر الريحان لم يجفّ عن نهديها.

— دمشق نسيت الريحان.

— يا سيّدي، أقسم أنّك أبي.

— لا، لست أباك... أبوك هناك... والملكة هناك.

— وأنا؟

— وأنت هناك.

هناك، هناك، هناك.

حيث طواحين الهواء، والنوافذ المشرّعة للرصاص، أغصان الزيزفون والشوارع المنذورة للوحشة، هناك الدور المهدّمة والاستكانات العميقة، حيث أثواب أمي وأقراط أختي، وعار أبي.

– أين هناك يا سيدي؟

– أمك تنتظرك. وهي تعرف الـ«هناك...».

جفّ صوتي، وتفجّر الألم في ساقي والخواء في روحي المتشظّية، سبعة قرون أخرى، أحسست بأنني نسيت نفسي داخل الأسوار المبتعدة.

الملكة، الملكة رخام وصفعة بيضاء، رمل معلّق في شرانق الغيم، لوز ينبت في الصديد، جسد وروح، روح تضيع الخطوات وتسرق البلاد من عناكب الانتظار، كانت أمي في مكانها جالسة على الأرض تنكش التراب، تعدّ أصابع قدميها، وتقول:

– تأخّرت سبعة قرون.

جدائلها مفرودة، منسوجة من التبن، ثوبها مهترئ الحوافّ وقدماها عاريتان، أمسكت بيدي. درب طويل، أطول من زقاق عمري الملوّث بالهباب وروث البغال، سبع دقائق، سبعة أيّام، أو سبعة قرون وقرب بوّابة وهمية لمدينة وهم وخديعة، قذفت أمي بيدي في الفضاء، وقالت:

– امضِ وحيدًا.

روحي مضطربة، وقدماي تتقيحّان بالدمامل، لم أختر أصابعي لأنتقي الدرب الذي أحبّ، جسد خاو وعيون ناعسة، دواليب عربات تدور على إسفلت لامع. دخلتُ المدينة، وصلت إلى المدينة امتلأت نشوة بالحديقة الأمامية المنسوجة من شمع الأيّام البعيدة، الحديقة التي كنت أغتسل في سواقيها وأغضّ بصري عن رجل يسمّي أعضاء أنثى بأسمائها ويستتر بالظلال، الشوارع مهجورة كما لم تكن، وحين يصل الرجل إلى الفرج كنت أشاركه التحديق في قمّتي النهدين، ومن خلال أوراق الشجر تنبثق الحلمة عارية، مستغيثة.

الشوارع، الشوارع. هتفت لنفسي: خير من تعرفك. الشمر تخرج ليلًا إذًا. صوت فراشات تهدل في أذني، فأفتح خطواتي بما نسيته من أسماء، أبحث عن اهتزازٍ لغشاء الطبل وعن درب بيتنا. أسير في الممشى نفسه، الأشجار تظلّلني وعبق النافورة يلفّ جسدي المتخشب. الرطوبة، البرودة، أخرج من الحديقة. ألمح أمي تتأبط ذراع رجل لا يشبه أبي وتعبر الساحة الرئيسية، يعبران وحيدين، ألحق بهما فيفلتان كالزئبق، الصدى والدرب الذي لم أعرفه. الظهيرة منارة. والضوء في كلّ مكان، النوافذ مغلقة والشرفات مهجورة.

من يدلّني على درب بيتنا، بيتنا الواسع، العالي السقوف والمظلّل بشجرة تين كبيرة؟ تهت في الدروب الساكنة سبعة قرون وأمام باب بيتنا توقفت، تلمّست جسدي ورثيت فوضى روحي قليلًا. أنشدت مبتهجًا:

– أنا النسيج الذي لم ينسج.

أنا النهر الذي لم تلوّنه السحب بالأزرق.

افتح الباب، وأدخل إلى فسحة الدار. الوقت المهزوم، أقراط أختي، وكرباج أبي «الذي نسيت أمي أن تقذفه إلى المزبلة»، معلّقًا على المزراب الحجري. أدخل.

أدخل وأنشج في العث والنفثالين.

II

قبل أن أولد بسنوات، تهشّم رأس أمي بحجر قذفه أبي ومضى مع بغاله لشتل البندورة واليقطين. في الغرفة الكبيرة، أمي تنزف الأحجيات القديمة، روائح الرجال، أغانيهم المجلّلة جسدها اليانع. أمي تنزف وأنا أركض في شرايينها لأصل إلى بوّابة الجرح كي أسقط على حوافّ الفضاء، فضاء الغرفة المتوجّسة، يومذاك تراءى لي أنّني شممت رائحة التراب وبغال أبيدور، رائحة الحموضة المكلّلة جسدَ أمي الأبيض، بعد ذلك ازدادت أمي قسوة أمام توسّلات أبي، تكدّست أكياس غباره على العتبة المتشقّقة وأمي تسكب الغار على جسدها، غير آبهة تمسك بفرجها المتهادي كسفينة محاولة إبلاج... أمام ناظريه، يجهش بالبكاء، تبتلّ لحيته الطويلة وثيابه، مسامّه تنزّ وأكياس غباره تمتلئ برغباته المتبخّرة على عتبة أمي الباردة.

أبي بأصدافه، بنظراته المنكسرة، بعاره وعاري في ما بعد، بأصابعه الطويلة المرتجفة في طريقها إلى نهد أمي التي تنهض مثقلة بالنعاس ولذّة النوم تقذف بلعابها، لعابها ذي الفقّاعات الملوّنة، الحائط أو وجه أبي المستسلم للحقائق أم اللحاف المسدل على وجه

اختي النائمة، أمي أيقونة مغلقة لا تفتح ساقيها إلّا مرّة كلّ قرن أو متى تريد، تحدّد المواعيد وأبي يستمع إليها خاشعًا كأنّه في صلاة:

– كلّ قرن، تعال إليّ مرّة.

ينتظر قرنًا كاملًا، ينظّف جلود البغال، يغسل السامّ، ينتقي الخرز الأزرق والأحمر والأصفر لأطواقها. الحذّاء يأتي كلّ صيف، تقرقع مطارقه ومقصّاته تقذف بحوافر البغال ذات الرائحة الشجية. التي أحببتها حين ولدت، الحذّاء يقرفص في الغرفة الكبيرة أمام خالتي صانعة أطباق القشّ، يفرك صدره، فخذه، ثمّ يتمدّد على الأرض، يقيّل ظهرًا ثمّ يعود إلى مقصّاته مع نسمات العصر المنعشة، وأنا أستمع لقرقعة الصحون، للضجّة الفامضة من نوافذ الغرفة الكبيرة لأصوات أختي وأولاد لا أعرفهم غير مبالين بسيلان الشوربة على أثواب التركال، موغلين في الخراب محطّمين أبواب الخزائن وفاضحين ألواب أمي الداخلية المرتّبة بعناية، تصلني الأصوات كحلم بعيد عن جنبات الدار بحوشها الواسع، بالإصطبل، قنّ الدجاج، جحر الأرانب، بالأدراج الصاعدة من سرّة أمي المغسولة بالغار، إبطيها المضمّخين بروائح الريحان المنقوع وروائح الروث المدبوغة على جلد يديها وشمًا للمهانة.

لا تعني المسافة شيئًا لأطرافي، أسبح في فضاءات مظلمة تاركًا خلفي خرائب المدن وهياكل البشر العظمية، غير آبه بالماضي الذي كنته وغير متسائل عن الحاضر والمستقبل الذي سأكونه، مع اقتراب القرن من نهايته، القرن المعدّ لنزفي، لقذفي إلى الهواء الطلق ذي الرائحة المشبّعة بالحموضة.

في الليالي الباردة، تتدثّر أمي بأغطية عسكرية تركها جنود ناموا في فراش أبي، وأبي مسحول على العتبة، ثمّ هاجعًا متدثّرًا

بمعطفه الطويل قرب البغال مع فانوسه الصدئ حتى الصباح. يستمع إلى الهمهمات العذبة، وطقطقة الأضلاع.

الحشرجات تغصّ في فضاء أمي، وأنا مصغٍ إلى نشيد الانزلاقات المنتهية مع خروج البغال إلى حرث الأرض. فقاعات المني، الجدران الرطبة للرحم المعدّ لانزلاقي وشكل الشفر المهيّأ لإعطائي شكلًا آدميًا. كلّ الأختام منتظرة مجيئي، إفلاتي من اللحظات الآسرة. وأنا أكثر من أيّ زمان مضى أحببت مطالع القرون التي لا تنتهي، حيث الأنهار تفيض بعذوبة فائقة، البغال تستكين قرب النير وفي مناخيرها غبار الطلع، النعوش في طريقها إلى المقبرة تتراقص على أكفّ المشيّعين الأغبياء، المتباكين على أكتاف النساء الملوّحات بأعمدة الفزع إلى الطيور العابرة، إلى النوافذ المستطيلة المسدلة الستائر في الغرف الكبيرة، حيث الضوء المنكسر على أنفاس الظهيرة، مطالع القرون، حيث البوّابات تفتح للغرباء الملثّمين ليستبيحوا المدن وأسراب الأغنام.

غرق أبي في الصمت، يجلس أمام النافذة، محدّقًا في الأفق الغربي، غمامات دخّان التبغ ترسم حول عينيه دوائرها، على يديه يتساقط الندى ومن قدميه ينزّ الصديد، مرّة ركب بغله الأبيض، على السرج تدلّت قربة الماء وصرّة الطعام التي تعدّها أمي له ويعتقد هو أنّها معجونة بسمّ الفئران الأزرق فيقذفها خارج حدود بيتنا للكلاب الطالبة الموت حشرجة في الدروب وفناءات البيوت المهدّمة، خرج بغله بخطواته الفرحة من الباب المفتوح دومًا، والمظلّل بقنطرة من الحجر الأسود المحفور عليها آية «الكرسي» بتوقيع نقّاش تركي اختبأ عندنا من بطش السلاطين، نام في الفسحة المعدّة لإنزال أحمال القشّ وأكياس الشعير، ثمّ انتقل إلى الغرفة الصغيرة مؤجّلًا رحيله سبع سنوات، نقش اسمه على قنطرة من البازلت الأسود وعلى ثلاثة

مزاريب من حجر أبيض، ومعلف للبغال، رسم لعاشقين ملتفين حول بعضهما بعضا على حوض حجري لغسيل ثياب إخولي، والقنطرة أخيرا. القنطرة المتمايلة فوق رؤوس العابرين، نقش على جنباتها تواريخ وأسماء غامضة. أتم سبع سنوات في غرفته الصغيرة، في المساء أعلن انتهاء الزخرفة، اغتسل ثم... مات.

دفنه الرجال ولم تحزن من النساء عليه إلا خالتي التي احتفظت بإزميله وبقايا ثيابه والكثير من أنفاسه، كان يحب الصلاة والخدوش. أبي على بغله في بازار عفرين، حوافر البغل ترنّ، الصدى يقرع الأرض المستكينة. تتكشف أمام ناظريه جدران بيوت عفرين الواطئة، شوارعها المستقيمة، أشجار الرمّان المتسامية من الفسحات، على بغله الأبيض يصل أبي إلى البازار، كرنفال ألوان متشابكة، ثياب النساء الكرديات، العربيات، النوريات، اليزيديات، الأشوريات، التركمانيات، اللامنتميات تتداخل مع عمامات الرجال الأكراد، العرب، النور، اليزيديين، الأشوريين، التركمان، اللامنتمين، العمامات المتطاولة وصدى الأصوات، القنابيز والشالات، السلال الفارغة والشراويل ذات الجيوب العميقة المطرزة بالحرير الملوّن، كرنفال ممتزج بالرائحة العبقة للبهجة المشتقة من العيون، حركة الأيدي المتسامحة، النظرات الخائفة إلى السراي القريبة، الضجيج، الغبار الذي يتصاعد إلى السماء، البقعة المزدحمة بأذناب الحمير، قشور البطيخ وحَبّ الرمّان، أكياس الباذنجان وقرقعة الموازين، كلّ شيء مُعَدّ لدخول أبي إلى البوابات المفتوحة ومن نوافذ السماء لا تأتي السهام المسمومة، المقبرة بعيدة... بعيدة، أبي على بغله متوّج بالنحيب واستكانة المسالك، بهجوع الأعضاء المنتظرة نهايات القرون، امرأة كردية يعرفها أبي أو أكثر من يعرفها تبيع السمّاق المجفف والكمّون، البهار وأطواق الوهم، تنفتح المسام ويبتعد العويل، وقف أبي على تخومها

قرنا أو قرنين أو القرون السبعة، عيناها نافذتان عميقتان تحذقان في أرض مجهولة، تتفتّق في أعشاشها الخبّيزة وينفرط الرمّان، رفعت نظرها إليه وقالت له:

– خذني إلى حيث أريد.

تركت وراءها أسراب الكمّون، البهار، الدروس، السمّاق الجاف والقرفة، ثمّ نهضت بثوبها المحبوك على جسد منهك من الجلوس على حجر. عيناها متعبتان من انتظار فيضان النهر المتهادي تحت الجسور وقنوات الرومان المنطفئ الضفاف، صدى خبب البغل الأبيض على الشوارع الترابية يرنّ في قبّعات رجال السراي الباهتة الألوان الصبنية من الكلس المنطفئ والأحجار المسروقة من مجرى النهر.

الجهات واحدة في عفرين، عفرين اللمسة الأولى، بكارة الاخضرار، ما ضيّعت من طفولتي وما لملمت من دروب لأصل إلى قبر أبي، السماء قصديرية، خضراء لا فرق ما دامت من دون رتاج تغلّف المرأة الكردية الممسكة برسن البغل الأبيض، حيث حقول السمّاق على ضفّة النهر المنطفئ الضفاف، بقدميها الحافيتين وثوبها الشفوف بالبرعمة توقّفت، وعفرين ضبابية تتراءى من بعيد، من الجهة التي لا أعلم، لا يعلم أبي المسحور باندلاق الشفتين، لا تعلم المرأة الكردية، تتراءى كقبّة مسجد مهجور.

في حقول السمّاق رطوبة، أعضاء أبي تنفتح بصوت مسموع الرئتين، تركت الرسن، وتمدّد أبي قرب شجرة سمّاق فرشت ظلالها على الأرض، مدّت يدها في اتّجاهه وسمع صوتها الحنون يعلن مواعيده:

– تعال.

– ...

– ماذا تنتظر؟

– نهاية القرن.

– قروني انتهت.

رائحة فجر التاريخ أزكمت أنف أبي، أنفه المتخثّر من حموضة ثياب أمي، من حموضة مسامّها، من طفح نهديها، نهضت المرأة الكردية إلى شجرة السمّاق القريبة وبدأت صنعَ سرير عالٍ من الأغصان الطرية والأعشاب المنثورة على ضفّة النهر، أبي مذهول من أوّل نهوض امرأة يراه، من تكدّس سرير السمّاق مصطبة، بابًا للخديعة ونافذة لعبور الصدإ، فراشًا من السمّاق وأبي مع امرأة، داخل – خارج امرأة، أبي مبلّل بالرذاذ، صوت جوقات بعيدة، دبكات كردية، عربية، أشورية، تركمانية، تعاويذ إسلامية، يزيدية، وعباءات مخترقة تغطّي الأفق تدثّره، تدثّرها.

– تعال إليّ.

– ...

مدّت يدها المزدانة بخواتم من النحاس الأحمر، انفجرت على الطين الدافئ روائح البهار والسمّاق، بهجة أبي اندلعت من عروقه المكتظّة بسكون مطلق.

المرأة الكردية المتشبّثة بالأرض المهتزّة الناحبة، القاذفة بالسمّاق وبالطين، تنهض من أوّل ضفّة لأرض منسية، ترفع شالها بيرقًا لانتكاسات أعضاء الرجال الباردة، أبي على الضفّة نفسها يبعثر النهر القريب في أنحاء الجسد المكشوف أمامه كليلة قدر، الرقبة العالية المزنّرة بالأطواق، الأكتاف المحبوكة من خيوط المعجزة، الصدر، السرّة النابضة والمتدفّقة مسكًا.

أبي، المرأة الكردية، السماء، البغل الأبيض المغتسل بماء النهر، حوافره المهذّبة بمقصّ الحذاء تخبّط القعر، تلوّث العمق بجثث الأسماك غير الموجودة وجذور الأشنيات غير المتشكّلة، أصوات الجوقة البعيدة، هزيع الليل البعيد والظلّ المتكالب، الهنهنات

المتأخرة، الارتخاء البهيج لأبي المتمدّد على الطين وللمرأة الكردية المستيقظة بالسمّاق وأصوات النساء غسّالات السراويل وأعضاء الرجال الرخوة، بائعات البطيخ والأثواب المبقّعة، انبلاج التربة تحت شفير المحراث، نهيق زبائن متأخّرين في البازار، روائح البهار، الكمّون، الثياب المرمية، كلّ هذا، كلّ هذا لنهوض أبي. ومن بين مويجات النهر العذب التمعت رقبته بين أصابع المرأة والأعضاء المتلاطمة في انكسار الضوء، تمدّدا على الطين مرّة أخرى، وفي المساءات التي من طنين وخيوط وهم عاد أبي للجلوس على حافّة النافذة يدخّن منتظرًا عودة البغال من حرث الأرض. وفي ذلك المساء الذي ابتعد كثيرًا من مخيّلتي العنينة وبقيت أطيافه تملّح صباحاتي الموؤدة، بعد أن عاد البغل الأبيض مبتهجًا بهمز العصا الليّنة بين يدي أبي الرطبتين، نهضت أمي بعد يوم أو قرن، فردت شعرها، ثوبها أمام الجدار المسدل على فضائح الخزائن المغلقة، رسمت حدود ظلّها وتراءت في الضوء الشحيح كومة عتّ وانهيارات مؤجّلة، فراشها في صدر الغرفة، أبي على حافّة النافذة منتظرًا البغال التي عادت من حرث الأرض، منتظرًا البازار المقبل، احتراق البهجة في دمه تصاعد إلى دمه، أمي المنكسرة التي أحضرت الكثير من الرجال إلى الفراش البارد الممدود قرب العتبة التي يعبرها أبي كلّ أربعاء إلى البوّابة المنتظرة تحفّ بموكبه فراشات الخدوش الممتلئة بأوراق طهّر بها عضوه من آخر فطرة بول، تحفّ به روائح الريحان، يطأ درب عفرين، الدرب إلى الهاوية المفتوحة على الرغبات المستيقظة، المرأة الكردية على حجر، تنهض حين يعبر الجسر تاركة البهار للمارّة تصطحبه من يده إلى فراش السمّاق، حيث الطين والنهر المختنق بالضفاف، الفضاء المثقل بلمعان الأشياء المتأخّر عن الاضطجاع على قوائم الجسد، البهجة المهنهنة الجدائل المفرودة كلّ أربعاء يتهامسان بغموض

وأنا أختنق منسابًا في دورتي الصغرى، أتجوّل في صدر أمي. أسمع خشخشة العقود الصدفية والنحاسية وألتقط حفيف أصابع الرجال الملوّثة باحتمالات الخراب.

كلّ أربعاء يعود أبي ليبوّل على فراش أمي ويدنّس روائح الرجال. يهزأ من سراويلهم، يضرب أختي ويتابع جمع الغبار في زجاجات ملوّنة، يلتقط الذرّات السابحة في أعمدة الشمس المسكوبة على البساط المنقوش بالأحمر وصور الفرسان الأوائل. تمتلئ الزجاجات. وعلى رفوف الإصطبل يصفّها بحركة انضباطية، يأتي الغلمان، شرطة المخفر، بائع الأمشاط والحذّاؤون يبادلونه المؤخّرات النتنة وأحزمة من الجلد بزجاجات الغبار. البغال أمام المعلف الحجري تلتهم الشعير المغربل منتظرة حرث الأرض، تاركة البغل الأبيض يستعدّ لصباح الأربعاء، المعلف اللامع تحت الضوء المنبعث من شقوق باب الإصطبل، المعلف الذي رأيت خالتي متمدّدة فيه عارية من الأسفل مستحضرة عبق النقّاش، خالتي التي بكت حين استيقظت البغال، والتي أيقنت أنّها ستفترش المعلف اللامع وتقف تحت المزراب عابرة من تحت القنطرة لتعود إلى فراشها البارد مستمعة إلى طشيش الماء في عتبة أمي حين يتهادى الفجر البارد طوال السنوات التي لا تعني شيئًا لمجيئي المقبل، أتكوّر وينتفخ بطني، زوائدي الأمبية تجرح صراخ أمي. لمعان عيني أختي أمام صفّ الأمشاط العظمية وانتفاخ خصيتي البائع، سها أبي عن عمود غبار مضى من دون أن يلتقطه، رائحة المساء، جلبة طناجر النحاس، طنين اليعاسيب، هديل الفراشات يوم الأربعاء، المزاريب، طنين الصمت، زوائدي الأمبية التي أشعرتني ببداية التكوين ترفرف في الجوف المعتم، أمي محدّقة في وجه أبي المعتاد الوقوف من دون رفيف الرموش أمام مصوّري حلب، تردد:

– نهاية القرن.

صدره الفسيح، عيناه المغبرّتان، قدماه المفلطحتان، يداه، كلّ ثقوبه تهتف لنهاية القرن ومسالكه تكتظّ بالسوائل.

على الفراش ذاته الملوّث بمنيّ الرجال وبظلال النافذة المحايدة، ذات الباب المقفل، الصهيل المتأخّر، إخوتي المتململين، أكداس الغبار رائحة التبن، يضطجع أبي وترتاح أضلاعه المتعبة، أنهي دورة الوهم أنا المثقوب بحفيف المسالك وجدران الشرايين، أتشبّث بما تبقّى لي، ما تبقّى لي بعض ظلمة، رحم مغطّى بالأقحوان وهسيس القرون، النطفة الأخيرة لم توقظني من خدري، أقترب من البوّابات، أسمع صراخ أمي التي تنشج بشهوة من يتدثّر بأكفان الندى، وتخاطبني:

– انتظر سبعة قرون أخرى.

– ...

– أتيت أخيرًا؟...

سبعة قرون أو تسعة أشهر أو عشرة أعوام عمر الخديعة، أتيت مصحوبًا بجوقة هزائم وخواء سبعة قرون، العتبة الحجرية تراءت لي حلمًا ما زال يلازمني وأنا أمام بوّابات دمشق أشتهي الاغتسال في بردى والتمدّد تحت جسر فكتوريا مع الغرباء والنساء العابرات مع أزواجهنّ وأحلامهنّ المطموسة، إلى اليمين فسحة الدار، حوض الزرع المسيّج بالعيصلان، أسمع شحيج البغل البنّي المعدّ للحرث وأرى أبي خارجًا من الإصطبل، في يده صحن شعير وفي الأخرى رسن البغل الأبيض المعدّ للرحيل إلى البازار.

الحدقة ذاتها، الرقبة الرفيعة ذاتها والنظرة نفسها المحدّقة إلى المئذنة، عاد إلى النافذة المعدّة لشروده في اتّجاه عفرين، نهضت أمي، امرأة تزدري ذاتها، تلملم أشيائي، أوّل الأشياء حبل السرّة

والزوائد المهملة، خنقته بشالها وعادت إليّ، وأنا في أوّل انهيار أغشاني الضوء ورائحة سوائل لا أعرف كنهها، وطأت الأرض الباردة، جبيني مندّى وفي يدي صورة الملكة، الرجال يكفّنون أبي باكين وملمّحين إلى أمي بإمكانيّة قيامهم بالواجب، عادت البغال وأبي رحل على باب خشبي مغطّى بحرام صوفي ورأسه يرقد على وسادة بتّ أنام عليها في ما بعد، وكم أحببت النوم عليها! في يومي الأوّل انسفحت على ثقوب الثوب وزغاريد النساء، رجال الملك في طريقهم إلى باب بيتنا المفرم بالصرير والعتبة المعدّة لخطوات الغرباء، صورة الملكة وأخطاء الحذّائين تؤلم قدميّ، وروحي تهيم مع أسراب الآلهة المحلّقة فوق قبر أبي الضائع وسط تسامي الشوك وبصل الزنبق، رائحة الغرباء تزكم أنفي، تضجّ بالفراش الوحيد الممدود وسط الغرفة، كقتيل منسيّ أخرج، أخرج، أين الملكة؟ الملكة، الملكة، أهتف، أمزّق أقمطتي وأفتح فراغات جسدي لريح تعبرني، تمزّقني وتلملمني من على دروب الحنين، قدمي تسبقني إلى ظلّي، تمحو كلّ ظلالي، وآثار القوافل، أضيع أمام البوّابات، وراء قبر أبي وهذيان أمي على الأوتاد النديّة، كلّ الضفاف تنثرني كرماد الأعماق تنقل فيّ وتحملني إلى القرارة البعيدة.

وحيدًا، كما أنا دومًا، لا أدخل من الأبواب المغلقة يهدّني خروجي والأقمار في الليالي التي من نحاس مدلّاة على بوّابات دمشق، دمشق هاوية الانتظار وأسوار البلّور، قريبًا من رائحة نسائها وبول رجالها، قريبًا من آخر انهداماتها أقعى أمام بوّاباتها كابن آوى نسيته الوحشة واستبدّ به الشوق لعواء الذئاب الآن، الآن دمشق تشطرني:

– ابن الصدى أنت.

يأتيني صوت أمي المخاتل من آخر المدى، المدى المفتوح على احتمالات المعجزة التي تبخّرت من بين أثواب أمي العارية تحت

ضوء القمر، ورجال الملك يصطادون السمك ويبعثرون رصاصهم على أسراب الطيور العابرة فتتساقط بين أحضان الفلّاحات المنتشرات في الحقول طيور حمام برّي، طيور حجل من دون مناقير، من دون عيون وباجنحة مظلمة فقط. رجال الملك يبحثون عن الرصاص الفارغ، عن درب أمي وحبل سرّتي ويتابعون الصيد والتدخين والكفر وقذف المنيّ إلى مياه النهر.

صوت أمي المختلط بصرير أبواب دمشق التي لم تفتح لي يناديني:

– انتظر سبعة قرون.

وها أنا أخيرًا ومنذ البداية، كائن متلبّس بالخيبة، خيبتي وخيبة أمي، خيبة أبي وأختي التي تركت البغال من دون ماء فتبقّعت الدمامل على جلدها ودخلت البغال في دائرة النسيان بعد أن ذهبت مع بائع الأمشاط إلى ما وراء البيادر، ثمّ إلى التخوم التي يصل المدى إليها، أختي هناك بعيدًا من جلبة الصباح المتأخّر كعادته مثل صلوات خالتي التي تبكي أمام المرآة، وتلامس الجدار بحلمتها، تدغدغ المسامير المعدّة لتعليق ثياب الرجال، من يهديني إلى الموت الآن؟ صباحاتي عفن وأرضي متحرّكة، من يهديني موتي ويفتح بوّابات دمشق أمام ما تبقّى منّي ويشاهدني عاريًا كما لم أكن عاريًا؟ نخاعي الشوكي مرمي على الأرض النديّة وقربي صورة الملكة تحدّق في عمودي الفقري المرفوع على حمّالات الكلام.

دمشق لا تفتح بوّاباتها والقرون السبعة لا تنتهي، أو تنتهي مع نهايتي ودخولي ملكوت الرماد، فمن يقترب منّي ويلامس موتي الذي أشتهيه؟ يقترب أبي من آخر مجزرة من آخر ثوب محترق وكومة رصاص فارغ يقف على مفارق الطرق كعادته، دومًا عند المفارق روائح السمّاق العالقة في جسده وأكفان المرأة الكردية، عيناه خطًا

متعة لا ينتهيان، يقترب مني، من تفكّكي وذوباني على ضفاف الأنهار، وضفاف النساء المتحاملات على الحياة، ضفاف قمر رافق خطواتي في الليالي الباردة.

– تعال إلى زيارتي.

– أين؟

– قبري عند تخوم المقبرة.

والمقبرة عند تخوم العالم الذي مضى، وأنا مسيّج بأناشيد معطّلة لم تحلّق كطيور أبابيل لتهطل كالمطر الحامض.

هطل المطر مرّة حامضًا ملوّثًا ببول رجال الملك وبلّل أثوابي، تغلغل في مسامّي، أحسست بالبلل الذي قادني إلى نشوة الطين، تمرّغت على حوافّه ورأسي مثقل بشموس القرون السبعة تفتّحت فيه النوافذ المغلقة، كان أبي يسير، المطر الحامض يهطل ومن خلفه كنت أخبّ على الدرب، لامرئيًا انسحبت من شرايين أمي إلى درب عفرين المطلّة من خلف الجبال ملوّنة بالرمّان والزيتون، رأينا النهر ففنّى أبي. النهر يجعل أبي محبًّا للغناء واقتفاء الخطوات الممحوّة، ينفتح صدره وتهدر شرايينه بعد سكون مبتهجًا، أو نكون مبتهجين بأنوار الجهات المطفأة، المفتوحة على احتمالات الحبّ والخديعة.

في آخر بازار وآخر أسبوع من ظلمتي ونوره، آخر دورة دمويّة لمسيري الذي لم ينته، وقف أبي على الضفّة بعد أن اجتزنا الجسر الخشبي المدعّم، المرأة الكردية اجتازت الجسر إلى الضفّة الأخرى، عند الضفّتين رجل وامرأة كردية وبينهما نهر والكثير من الذكريات، تهدم فراش السمّاق، تذرو البهار على صفحة النهر المترقرق كطفل منسحب من ألعابه إلى برك المطر الحامض، لوّح أبي بيده التي بردت في اليوم التالي، بردت من دون أن تلمسني، لوّح للشال المشلوح على زوائد الفصول المتأخّرة، المطر ظلّل الوداع الأخير،

لوّحت، تعرّت، هدمت فراش السمّاق، رويدًا رويدًا مضت إلى النهر وفي النهر غير المتوقّف، غير العابئ بكلّ هذا الشهيق الذي لمسه، مضت المرأة الكردية وأبي على بغله الأبيض يلوّح لها، للغيمة الهاربة، لانهدام فراش السمّاق، للبهاء المنثور على صفحات النهر، لجذوع السوسن تحت حوافر البغل الأبيض المقلّمة، للمرأة التي احتضنت النهر وأوغلت في العمق غير المنظور وأنا في ظلال المواكب أنتحب، أنتحب كمن أسقطته المصادفة على حوافّ العزلة، التلويح آخر الجسارات، آخر كذبات البشر وأوّل النسيان. أختبئ في ظلال أبي الشامخ كما لم يكن في صوره، في جلوسه أمام النافذة حين يأتي المساء وتتفتّح الجهة الغربية بنشيدها. المرأة الكردية في نهر عفرين تلقم المطر نهدها وتقطر حليبًا تمنّيت لو تعمّدت في قطراته.

أبي ونهر عفرين آخر معجزات الذاكرة وآخر تعريج على حدود الممكن. أبي لم يدر ظهره والبغل الأبيض ارتطم بالجهات المقفلة وأغشاه المطر الحامض، استدار عابرًا الجسر، والمرأة تحت الجسر تمضي في النهر شامخة بنهدها الأبيض وفرجها الأخضر، بحليبها المذبوح بسكاكين الرذاذ، وعلى درب يعرفه أكثر من أيّ بغل في العالم، يعرف زواياه وتفاصيل دهشته، لمعان الحصى وروائح النباتات، مضى من دون أن يلتفت حين تقاطعت المرأة الكردية مع آخر غيمة مطر حامض، المرأة الكردية امرأة السمّاق والبهار، امرأة النهر أصبحت صديقة الضفاف، تخرج كلّ مساء من بللها، تعيد ترتيب الأشياء، السماء، الأعواد، الضفاف، فراش السمّاق تبنيه ثمّ تهدمه، تمسك النهر من لمعانه، تبسطه على السرير المعدّ لأبي، تتشمّم رائحة قدميه، تغسلهما بدموع حبيسة ثمّ تعيده إلى مجراه آخر المساء ويغمرها الماء، الماء، الماء المتسلّق أدغال الرغبات الماضية وقوائم سرير السمّاق. أبي قرب النافذة منتظرًا موته، والمطر

الحامض الملوّث ببول رجال الملك توقّف عن الهطول بعد أن بلّل ثيابه ولوّث حطام نهر عفرين.

أهرب من ظلاله وأعود إلى شرايين أمي نطفة كبيرة براس ويدين، برجلين وعشر أصابع، لم أعرف لماذا عشر أصابع وأنا مثقل بنتوءات الرمل والانتظار، أصابعي العشر للشتم أم للإمساك بصورة الملكة؟ سبعة قرون أمام بوّابات دمشق أنتظر خديعة الرتاج، ثمّ في ساحات حلب، ساحة الديناصورات المحنّطة وخطو القوافل الخاسرة لألق الرغبة في الرحيل وهجر تجارتها، أصابعي العشر ذات الأظافر الملوّثة بهباب التمزيق وتلويث الشوارع بالدم وروائح أمي التي تعبر الساحات، تخرج من ظلال الأشجار، تنتظر رجال الملك وتقود عربات الرغبة إلى آخر الانسدادات. كم أحبّ الدروب المقفلة والجدران الكلسية الغامضة الملوّثة بحشائش الأرض! كم أحبّ التمدّد تحت الظلال، ظلال أبي على نهر عفرين، ألملم مع المرأة الكردية رائحة ثيابه وأبني مجدًا للمعجزات الكاذبة المنسوجة من ضجر الرجال وأشباه الرجال الملتاثين بأوراق الخريف وكذب الملوك! أخرج من المتاهة التي لم تنته إلى الغرف المقفلة العابقة بروائح النساء المنتظرات، إلى الشوارع التي تعبرها أمي، يدها بأيدي رجال الملك والأخرى متروكة لزجاجات الغبار الملوّثة بأنفاس أبي ورائحة أصابعه.

في يدي صورة الملكة التي أبحث عنها، الملكة، فمن يدلّني على رائحتها على ترف خطوتها؟ تهت في الدروب وتفاصيل البوّابات، وقفت أمام بائعي السحلب والرصاص، أمام تجّار المقابر وحرّاس الخديعة، عرّجت على مجالس العجائز وخلوات العشّاق، من يدلّني ويأخذ صورة الملكة من يدي المبلّلة؟ اقتربت من أمي، من صوتها المختلط بصرير أبواب دمشق، رنّت كلماتها في أذنيّ وغصّ في حلقي الكلام:

– أريد الملكة.

– ابحث عنها.

– أريد الملكة.

– ...

– أريد الملكة، فأنا مسكون بعشق الفرج الأخضر والأيدي التي لا تتقن التلويح.

ألحق بخطوات أمي، من بعيد أراقب الرجال أمام قبر أبي فاردين أكفّهم متمتمين بالفاتحة وقصائد الرثاء، واقفين أمام باب بيتنا مرذّدين مناقبه ومضطجعين، أمي على العتبة، العتبة ذاتها التي اغتسلت بها أوّل مرّة، التي خرج منها أبي جثّة باردة وعينين متسائلتين عن الدرب الأقصر إلى المقبرة، أمي على العتبة توزّع الفصول على المشاجب وتغلق الباب في وجهي حين أردّد بصوت مسموع أقرب إلى البكاء:

– أريد الملكة.

– اخرج قبل أن يراك رجال الملك.

أتأبّط ذراع الوهم، أخرج من عُري إلى عُري لأدخل عُري وفي يدي صورة الملكة، حولي تنتشر السكينة المنبعثة من عيني أختي التي أراها الآن مبتهجة بأكوام الأمشاط، برجل لم يعد يدخل بيتنا لبيع الأمشاط، تسير أختي قربي امرأة ككلّ النساء، بنهدين رخوين وشعر منسدل على الكتفين المنذورين للأحمال الثقيلة، تجرجر طفلًا امتلأت جيوبه بالمخاط والجوز والعفن:

– إلى أين تمضي وحيدًا؟

الصوت المنساب بهدوء أنثى نسيت الأغصان وغزل أشكال اليقطين وتمادت في الإيغال بعيدًا في جلد الرجال، الصوت يعيدني إلى عالم البراءة الأولى التي لم أعرفها، ينتشل قيحي وصديدي،

ينتشل ذاتي المنسربة إلى الطين، التفتُ إليها ورأيتها مجلّلة بالغبار وزعيق طفلها المطأطئ والباحث عن مكان لقدميه على الدرب الذي ضيّعني وأهداني للكثير من المتاهات، أحسست بالفرح حين رأيت لمعان عينيها لأنّ أبي مات مجلّلا بالعار، عار أختي التي تسير إلى جانبي ولا تدري لماذا أناجي الخفافيش وتتسلّقني ديدان الأرض من دون أن أحطّم أضلاعها.

أتطلّع إلى صورة الملكة كلّما عبرتني غيمة متأخرة أو لفّتني امرأة برائحة عطرها وحفيف ثوبها، لا تدري امرأة العار الذي أبهجني أكثر من فتح بوّابات دمشق أمام قدميّ التي نسيت السير بتتابع ممل كالبشر الآخرين، ظللت صامتًا تغمر نفسي سعادة أن تكون لي أخت هربت مع بائع الأمشاط وتركت خالتي حزينة، وحيدة مع العناكب ومسامير الغرفة متلمّسة جسدها، منتظرة البراري أن تعبرها ويقف الرجال أمام عتبتها الصدئة، خالتي ذات الجسد الأسمر والسراويل المضيئة كالفوسفور، دومًا كنت أدخل المرآة وأتلمّس حافّة نهدها حين تقرّبه من المرآة لتلامس الحلمة الأخرى المفتخرة باحمرارها المنتفخ، ألامس التشقّق المنذر بالخراب، أحسّ برعشتها وسيلان فرجها، تبتهج، تبتهج، وتبتهج الجدران المطلية بالكلس المنطفئ وشاهد قبر أبي يغضب وينام، في الليالي خالتي تفتح الباب تعبر الساحة الخالية إلّا من الروث ورنين الخطوات النائمة الآن في الليل، بعد قليل يتعالى رفس البغال وصياح الديكة تقول للصباح:

– عمت خرابًا أيّها البغل.

تعود إلى وحدتها المنسوجة من دكك سراويل الرجال المقذوفة في ساحة بيتنا الواسع، بيتنا ذي الشبابيك العالية. في الليل الذي يلاحقه الصدى والعويل، تفتح الباب الذي تفرقه بالزيت كي لا يصرّ، تنزل بخطوات متلاحقة الدرج الحجري، حيث النقّاش التركي الرقيق

القلب واليدين، المتمدّد على فراش القش كالينامى ينهض من أردية الليل، خالتي ذات الأربعين عامًا، ذات الأبواب التسعة المغلقة وآلاف السيلانات تتعرّى ببطء، بمتعة، النقّاش التركي يصلّي فرض العشاء وخالتي ترمي زرّ ثوبها أوّلًا من عروته ثمّ تطلق الزرّ الثاني من العروة الثانية، الزرّ الثالث والنهد، ثمّ النهدين المتزاحمين على مساحة الفضاء، بسروالها الفوسفوري تقف مستعدّة للنحيب، منتظرة انتهاء الصلاة تتعرّى للخدوش، للنمل، لصهيل البغال ونظرات الشبق، لخمّ الدجاج تخلع سروالها الفوسفوري وتكتشف أنّ ما نسيته بين يدي النقّاش التركي غشاء بكارتها وعلى الفراش بضع نقاط دم فتنهض من موتها امرأة مغرمة بالبهجة والماء مولعة بجغرافية جسدها المتفتّق كزهرة لوز، تذوب في النظرات الحالمة، في إزميل النقّاش وتدرك أنّ الخسارة سبقتها إلى محراب المسجد القريب وإلى اعترافات رجال الملك. أنا المهووس بحلمتها المتشقّقة، بلفيف فخذها المكشوف قصدًا، بعريها المبالغ فيه حين تتمدّد على البساط في الظهيرة القائظة أعوي في فناءات الحرام وأمتطي زوائدي المتنامية بين فخذيّ، أوقظ الرغبات الآسنة، ومع القوافل أنشد للحدّائين مشطورًا، وفي تبعثري طريق الخلاص، أخطاء الحذّائين تؤلم قدميّ وصورة الملكة في يدي، في جيبي، في قلبي، أتطيّر من القنافذ والسحالي، أمضي عابرًا البوّابات المفتوحة لأقف أمام الرتاجات، عند بائع النرد تقف أمامي امرأة من سلالة الوهم، توقف القوافل ومن يدي تشدّني إلى الظلال، ظلال الجدران المغرمة بالخدوش وتحت ظلال الخيام وأوتاد المآذن تنظر في عينيّ، وتقرأ:

«غريبًا تدخل البلاد لتخرج وعلى المجرّة محفور اسمك بالدم انتظر مشنقة سيقذفها في طريقك رجل لا تدري أنّك خليفته على

الأرض سنبحث كثيرًا. وأمام المتاهات لن تملك زمام أمورك تسلّح بالشك وادخل مدار اليقين وكن حارس الخديعة».

القارئة تعرف دربي المنسوج من سبحات العجائز وزجاجات العبار المنسية قرب أرسان البغال، البرودة تتسلّل إلى ثيابي والمرأة مقرفصة تفكّ تعاويذها ورموزي، تراني واقفًا على جبل عالٍ وتحته النصال الحادّة مرتفعة كأشجار السرو ثمّ تراني راكضًا في البراري مفتوح الصدر، طليق اليدين، تنهض لتشير إلى ما تبقّى من غبار قافلة عبرتنا:

– الحق بالغبار.

– لا أريد أن أتحرّك... أريد أن أرى كيف تتموّج الخضرة في جسدك.

– جسدي ليس أخضر.

– بلى، وفرجك أيضًا.

ضحكتها ترتطم مع قرقعة أحجار النرد على الأرض الترابية، تمدّ أصابعها لتلتقط ما تبقّى منّي، تركبه على هيئة كائن، تسوقني وراءها كخروف العيد، وفي أرض كاملة العراء انفتحت فجأة أمام أقدامنا أرض أيقنت أنّها أرضي، أرضي، أرضي، هتفتُ بكامل نشيجي، زغردت بكامل احتقاني.

– تمهّل قليلًا يا ولد.

صوتها رنّ في الصيوان المعوجّ، تسلّل إلى شراييني وأوقف ذهولي، وكانت الأرض أمامي مفتوحة على احتمال أكثر من معجزة، كأن أبي يأتي من الجهات التي لا أعلم بها ويقود الرنين خطواته، كأن تنهض أمي من أكداس السراويل الذكورية امرأة مصابة بالخيبة وانتظار أبنائها الغائبين، كأن تنام خالتي في فسحة الدار على ذراع النقّاش التركي الذي مكث سبع سنوات يخطّ حدود الجرن الحجري ونقوش المزاريب، خطّ كلّ الفواتح واسم خالتي بأحرف متداخلة،

قراها أبي آية من سورة «مريم»، وأيقنت أمي أنّها قصيدة في مديح ضحايا المذابح المنثورين على أدراج قصور السلاطين إلّا خالتي التي اعتادت السير ليلًا في صحوها، في نومها مبتهجة بثقبها النازف. المصدر قرقعة عذبة كالتي ترافق طشيش الماء في عتبة أمي حين يبدأ القرن الدخولَ أو حين بدأ المشيّعون التقاطر إلى باب بيتنا، فرادى يحملون النرجس لذكرى أبي، والتين اليابس لي ولإخوتي كي نتدثّر بجلود البغال في الليل ونعدّ حتى العشرة.

خالتي ذات الخطوات السبع دأبت على الوقوف تحت المزراب في الشتاء والاغتسال بعبق يدي النقّاش الذي رحل من دون أن يساوم على حدود الحظائر وثمن صحون الطعام، تاركًا خالتي التي لا تحبّ الصلاة تركع كلّ فجر عن كلّ المؤمنين المتقاطرين على دروب مكّة وتمدّ سجّادتها المنقوشة، المضمّخة بروائح لا تفارقها مكان فراش النقّاش، وفي زاوية غرفته الصغيرة المفصولة عن الإصطبل بحاجز خشبي لا يمنع ذرّات التبن من التطاير ولا يبدّد شحيج البغال المتفلفل في الفضاء المفتوح على الهنهنات الذائبة في تسبيح خالتي التي تدخل من الباب، الباب نفسه الذي خرج منه ممدّدًا على أربعة أعواد مكفّنًا بثيابه البيضاء دومًا، لا تهمّها الجهات ولا القِبلة، تفرد سجّادتها وتغلق الباب وراءها، أتسلّل إليها خلسة، أشاهد الثقوب الجافّة المبتهجة بذكرى الغائب، الذكرى القديمة الغافية في خدوش السكون المطبق على الفناء الواسع، تمسّد رأسي حين أخرج ومن شفتيها تتساقط الكلمات ببطء، بشهوة:

– إن متّ وسّدني هذا المزراب وذلك الصندوق، وصيّتي وسّدوني هذا المزراب.

تعود إلى الاغتسال تحت ماء المزراب، وتقول:

– هذا من رائحته.

وتشير بيدها إلى الأفق، حيث الطيور لا تعبر سماءنا، والهواء يتجمّد في الأعالي، هذه الأرض أرضي أهتف للقادمين وتدبّ في جسدي حركة غير عادية فأرتدي ما تيسّر من ضجيج الصمت، وأقتفي خطوات امرأة النرد.

– بيني وبينك الهواء سأريك فرجي لتدرك أنّه ليس أخضر.

فرحت، انتشيت، أخرجت صورة الملكة من بين أصابعي وفردتها، تأمّلت الوجه واليدين، تغلغلت إلى ما تحت الثياب، تحسّست الأخضر المختبئ بين أشجار الحور وكانت امرأة النرد ترمي في الفضاء ستارًا من أعواد القصب أخرجته من حقيبتها القماشية الواسعة البعيدة القعر، قائلة:

– من هذا الثقب، انظر... وإن أردت المسه.

كانت السماء قريبةً وكانت أصابعي ترتعش، أصابعي الناقصة. سمعت في صمت تلك الأرض صوت ثوبها المرتفع رويدًا رويدًا ليلفّ جذعها ويغمر وجهها، ثمّ سمعت صوت انفلات الدكّة ومن طاقة تمنح لذّة العواء، وتمنح الظلال شكل المعجزة، على قدميّ ثمّ على ركبتيّ جلست كمتعبّد حدّقت في المجاهيل المكتشفة، اللحظة الأولى أفقدتني لذّة الفرح و«رأيت ما لم يره أحد»، جنائن من العلّيق وأرضًا مستباحة، الفرج المتدلّي الشفرين المتهدّل المتشقّق الحوافّ كزورق خارج من عاصفة، أحسست بالخيبة تعرّي عمودي الفقري وتسفح ما تبقّى منّي على أرض الملذّات البعيدة، القافلة رحلت وأنا وحيد مع امرأة النرد في العراء:

– هل رأيت خرائبي؟

سمعت صوتها أو أنّ صدى القرون السبعة تصدّى في تجاويف الأذن الداخلية، وانغرس في أعماقي الملوّثة بالهباب، وحفيف الأثواب:

– فرجك ليس أخضر.

.. ولست الملكة.

– أين درب قافلة الغبار؟

– قافلة الغبار رحلت، تاهت.

– وأنا، أبقى في أرض ليست أرضي؟

– لا... ستبقى معي إلى أوّل القرن.

بكيت بحرقة من أضاع مفاتيح بلاده، وحين أتى الغزاة دخلوا من دون استئذان فاستباحوا الوقت والجغرافيا وانهدامات الكائن. نهضت، قدماي تؤلمانني، يتصاعد الألم إلى آخر فقرة، يمتدّ إلى آخر سلامية، سرت، سرنا أنا وامرأة، طفل وامرأة، رجل وامرأة، أمامنا اللاتناهي وخلفنا الخطوات المرسومة على الرمل، على التراب، أمسك بكفها فتلبسني الحرارة وأشمّ رائحة الحموضة، رائحة ثياب أمي وفراشها نفسها، والدفء يغمرني ويجعل استيهاماتي وخيبتي ذكرى لأوّل بوّابة مقفلة، لا أدري كم من السنوات، كم من قمر، كم من شمس، كم ظلّلني الوقت وظلّلته، كم من مرّة اضطجعت على العشب في أرض لا عشب فيها، وتحت الظلال، ظلال السماء، ظلال الأشجار الغائبة، ظلالها، أوقفتني، قذفت بثيابي، نثرتها خيوطًا لا تحبّ النسج في الفضاء المفتوح دومًا على احتمالات القرون المقبلة، قالت:

– استحمّ وتدثّر.

– أين الماء؟

قالت، وأنا أغالب صقيعًا تلبّس عريي:

– بالتراب، هنا لا يوجد ماء.

– بالتراب؟!

– نعم، بالتراب.

انتبهت إلى جسدي المهتاج بين يديها الغضّتين، الناعمتين، جسدي المنسي بين طبقات الأرض تفركه بالأعشاب وجذور النباتات

الغضة، تقبّله وتهزّ سكونه. أحسست بأنّني ولدت هنا في القفار، وفي الليالي التي من رنين، الليالي التي سرت على حوافّ أقمارها متحاملًا على ما تبقّى منّي ومتساقطًا على الأسيجة طعامًا للديكة ووقع حوافر البغال الشاردة، المرأة قربي ملتصقة بكومة أشلائي، أو أنا قربها ملتصقًا بحفيف ثيابها، وأمامنا الليالي الباردة وهلام الأحلام، البوّابات المقفلة والبهجة المؤجّلة دومًا، أمي البعيدة الداخلة في شفافية الأشجار وعباءات الرجال تقتفي خطواتي تلكزني كلّما شهقت وتتلبّسني المباغتة زائغ النظرات، محدودب الظهر، طري القدمين كأنّني في طريقي إلى عرائش الكفن.

ضيقٌ شديد يتناسلني، يقفز فوق بقاياي، ضيق شديد فمن يسامرني الآن ويقذف بالبهجة إلى فضاءاتي المستباحة؟ من ينتزع يد المرأة ودفئها المتسرّب إلى عروقي، الدفء الذي يجعلني كائنًا قابلًا للمزاحمة على الشهيق، وبعثرة الزفير بحسابات مدروسة ككلّ الكائنات التي تركض ولا تصل فتستريح في الطريق عمرًا كاملًا ثمّ تموت، وترتمي في أحضان الدود؟ من يهلّل عليّ بما نسيته من طعم الغيم ودروب عفرين، من رذاذ النهر ورائحة المرأة الكردية، وغيوم أبي الصدئة؟ من يفتح البوّابات، بوّابات دمشق أمام قدميّ، ويجعل القرون السبعة أرماث ذكرى بعيدة غير جديرة إلّا بالبصاق وتفتّق الخواصر من الضحك؟ من ينذرني لرقص حول نار مجوسية تمتدّ من الفجر الأوّل إلى آخر فجر ويخلع عنّي أسمالي، أسمالي المثقلة كاهلي المشذّبة أطرافي المشاغبة؟ من أيّتها القفار؟ التراب في فمي، في مسامّي وكلّي تراب، أسير إلى جزئي باحثًا عن تفاصيلي فلا تهرب الغيوم ولا تقف فوق رأسي، لا تتدلّى قناديلها ومشربيات سقوفها لتجعل خاتمة النهار ليلًا ساطعًا بالبهجة، تسلّل الدفء إليّ تمامًا، شعرت بالذوبان ورائحة الأنثى محوّمة حولي، الأنثى تنظر إلى الأمام

منظرة شيئًا لا أعرفه ستقذفه البراري التي تحوّلت إلى قرى، ثمّ إلى مدن وثوّجت بالعواصم، قربها أكتشف ما تبقّى من ذاتي، وأنا لا أحبّ بهتان الأشياء وتشظّي البؤبؤ، تذكّرت الملكة حين صعد الدفء إلى قمّة رأسي وأحاطني بهالة من الاسترخاء ترافق توتّر شراييني وانتصاب قامتي وعضوي الذكري، المرأة واثقة في نظرتها الثابتة وتعرّق يديها، امحو خطواتي، وكما أنا دومًا أحبّ شطب ما ورائي من ذكريات وأحلام كسيحة وأقفال وأختام.

هتفت لصورة الملكة المختبئة في جيبي، جيبي المثقوب، هتفت لعينيها، لشفتيها، لصدرها، لفرجها الأخضر، لكلّ ما تحيط به من أسرار فتنتها، وكلّ ما تخبّئه نظراتها الغامضة، الملكة، الملكة، من يرفوني خيطًا في ثوبها؟ من يبعثرني بين الشهقة والشفة السفلى، يُلثِمني حلمتها ويذوّبني عنبرًا في استرخائها على ضفّة نهر في الليالي المقمرة والمظلمة؟ من يعيد إليّ الفرج الأخضر لأتدثّر به وأنام أخيرًا تاركًا ورائي البوّابات المقفلة وأسوار القصور وعسكر الملك؟ من يدخلني مخدعها لأتلوّث قليلًا بحيضها وأشهق على ذراها المتدلّية كموجة زبد، الملكة هتفت وكامل يقيني غائب، المرأة تشدّ على يدي وتبعثر نشيدي، تدخلني مدينة لم أشمّ رائحة بدايتها ولا لذّة الولوج من خصرها، المدينة التي أذكر ساحاتها العتيقة ونوافير الماء الملوّنة بالبطّ الفارسي وركام الريحان، المفتوحة أمام الغزاة الأوائل الذين ناموا في مخدع أمي على الفراش المبلّل بالحموضة وما زالت ثيابهم موزّعة على المشاجب ومسامير الفولاذ، على جدران بيتنا البنادق العثمانية والطرابيش، السراويل الفرنسية وسترات الجند، الكتب المغبرّة والمشانق المبلّلة، أجلستني المرأة على ركبتيها، أيقظتني رطوبة الليل، وبرودة المباني العالية، بحثت عن قدميّ فلم أجدهما وسمعت رنين حذائي على البلاط الحجري، رأيت الشرفات تتدلّى

الوجوه منها وصرخات العويل وأيقنت أنّني محكوم دومًا كما أنا دومًا بأن أفتح الباب ورائي، أخلع من قدميّ أخطاء الحذّائين وأدخل خديعة المدينة.

دومًا، كما أنا دومًا.

أعرّش على نوافير الماء، أنتقي من الطحالب الأخضر الباهت ومن الثانية عشرة ليلًا عناق الصفر.

المدينة نائمة، هاجعة، أعرف أنّها حلب.

حلب نائمة، حلب، حلب، فسحة الخرائب المعدّة لنزيفي، لتوحّدي، لقتلي وصهيل أحصنة مترمّلة متروكة لجرّ العربات وأخطاء الحذّائين، حلب الثانية عشرة ليلًا، أخرج من عناق الصفر، الشبابيك مفتوحة على الفحيح وأعضاء الرجال مقمّطة والإناث يقطعن الهواء بهستيرية، يشكّلن كومة قضبان ويقذفن بأجسادهنّ المرحة إلى كومات الفراغ، القلعة ساكنة مزنّرة بمسيل الماء الحزين من الماء ووقع حوافر الغزاة، أقترب من الحجر الصلد وألوّح لرؤوس الضحايا المعلّقة على رماح الحمدانيين، أسمع وشوشة المتنبّي ثمّ صراخه، أرسم السراديب المغلقة على ورق ثمّ أمزّقه فتنداح أسرار الأمراء ودواة الحبر وتطير عباءة سيف الدولة، أبتهج بالمشهد، أتابع طريقي مصفّرًا لحنًا مرحًا من بقايا خدوش الأندلس، ورائي السراديب المفتوحة على الجهات غير المعلومة، الهازئة بذكاء المنقّبين عن بقايا الملوك في أثواب نسائهم الشفّافة وأعضاء الخصيان المتروكة تحت الشمس لتجفّ سيول المنيّ من شراييتها وتصبح كالقديد المزعج لشهوة النساء المستحمّات، والخارجات الآن إلى قاعة العرش عاريات ليتضمّخن بالريحان والمسك، الشوارع المستقيمة والصمت، الألغاز، هجوع الصفر في العقارب وكلّ النوافير، كلّ الشرفات، أدركت أنّني جالس على ركبتيها أمارس الغزل مع النوافير وأخون الملكة والمرأة

مع الصمت، المرأة تتمدّد، تتمدّد، ترسم فراشًا على العشب ويخرج صوتها ليذكّرني بالكلام:

– تدثّرني ونم.

صوتها متعب، مبحوح، متهجٍّ مفردات لم أعرفها من قبل:

– تدثّرني، تدثّرني فأنا أكره البرودة.

– أنا؟...

– نعم، أنت.

تمدّدت على الفراش ثمّ نهضت، رسمت مخدّة واستلقت الشوارع مظلمة صامتة، أنين خافت ينبعث من الشبابيك المفتوحة، وحيدين في ساحات حلب، على العشب فراش ومخدّة وفي السماء غيوم تافهة:

– ارسمي لي لحافًا، فأنا بردان.

نهضت المرأة مثقلة بأنوثة أدركت عذوبتها حين توسّدت حضنها الدافئ:

– هذا لحافك تدثّر، ثمّ تدثّرني ونم.

تحسّست صورة الملكة في جيبي ومارست مع نتوءاتها الشبق قليلًا، ضحكت متخابثًا ممارسًا الغواية، في هذا الليل الطويل من دون أيّ معنًى أغمضت أجفاني ولم أغفُ، المرأة قربي، فيّ، ذاهبة في فصول الجنس تتبادل السوائل مع النوافير البهيجة، متحسّسة زوائدي، أصابعي الممسكة بصورة الملكة تجمّدت، عاريًا بين فخذيها الممشوقين، وحولي الأضواء والصمت والمرأة مطبقة على جسدي بكلّ مسامّها، أصابعي تجمّدت، قذفت بصورة الملكة أو تركتها تسقط كريح في بئر ثمّ استلقيت متناسيًا أخطاء الحذّائين. تدثّرت بالمرأة وأوغلت في حنينها، في وجعها، في صرخاتها المتقطّعة من الشهوة الفائضة في شوارع حلب، هززت رتاجات النوافذ فتطايرت الستائر

والضحكات المكتومة، تدثّرت ولم أنم، تدثّرت بالمرأة ولم أنم، اتّكأت لتأمّل الحلمة النابقة، المتوهجة، المقرفصة على تلّ من البكاء، على نهد أسمر مختلج كحمامة لا تحبّ الذبح، اتّكأت طافحًا بالرغب حتى الصباح، الصباح الذي لم يأتِ، رسمته المرأة على الهواء فأقبل، والصباح، صباح حلب حيث الأعشاش الكثيفة والطيور المهاجرة في اتّجاه الأناضول تعترضها أسلاك اللافتات الدائمة، الصباح، صباح حلب والشوارع ما زالت صامتة، لفّتني المرأة بذراعها فشممت رائحة رطوبة السائل:

– نم حتى تصعد الشمس.

صعدت الشمس أو هبطت لا أدري إلّا أنّني رأيت شمسًا، ورأيت ظلامًا كثيفًا واستيقظت من دون أن أغفو، حولي أصوات البشر ولا أرى بشرًا، غسلت وجهي بالندى وتربّعت على العشب، المرأة مقابلي تزرّر ثوبها، باغتتني أمي بزركشتها ويديها النظيفتين من دم أبي وخالتي الضاحكة، أوّل مرّة أراها ضاحكة بعد رحيل النقّاش التركي، في يدها صرّة فتحتها، رداء لي ورداء للمرأة، رجال أعرفهم لا أذكر أين التقيتهم قد يكون أبي أحدهم، قد يكون أحدهم خالًا لي أو عمًّا أو جارًا في منزل وهمي على جغرافيا منسحبة من تحت قدميّ، أمي مبتهجة بعريي وبأعضائي المتدلّية من التعب، المرأة مبتهجة بأمي:

– تأخّرت.

ضحكت أمي من صوتها المبحوح:

– الطريق إليه متعب أليس كذلك؟

والتفتت أمي، ثمّ التفتت خالتي، ثمّ ضحك الرجال مستبشرين لا أدري بماذا.

– انهض واستحمّ مع زوجتك.

– زوجتي؟!... من زوجتي؟!

مشدوهًا، تملكتني الحيرة فضحكت مع الرجال:

– هذه زوجتك، استحمّ وارحل قبل أن يراك رجال الملك، إنهم يبحثون عن صورة الملكة.

– الملكة زوجتي، وهذه المرأة فرجها مثقوب وليس أخضرا

– هيّا تدثّر، طريقنا طويل.

أومأت خالتي بعينها، مستذكرة عذوبة الصباحات الأولى. ألقت عليّ رداء مقصّبًا، عرفت من رائحته أنّ أصابعها نسجته على مقاس النقّاش غمزتها مسرورًا وسرت مع القافلة.

وأنا دومًا، كما أنا دومًا.

أنفر من درب القوافل والقيح يملأني حين يهاجمني غبار خطواتهم، أشرد، أنفتح على الجهات، تتفتّق من خاصرتي ينابيع ماء عذب فمن يمسك بيدي الآن، ويبخّرني من رائحة الموكب النتنة، يصعدني إلى طبقات السماء اللامرئية؟ سار المركب يقرقع بصنوجه وأنا في الوسط قرب المرأة محاطًا بأمي وخالتي وأعمامي المفترضين كخروف مقيّد القرون متلعثم الخطوات، فيضاني جفّ والصداع أمسك برأسي، خطواتي من دون معنى، من دون رائحة والأرض تلكزني في باطن قدميّ، المرأة ممسكة بيدي متعلّقة بي كحقيبة سفر ملتصقة بي تحيطني بنظرات الشهوة ممعنة في خطوط كفّي وبصمات أصابعي، الموكب يسير وأنا تلعثمت وأمام أبي في آخر رحيل له إلى عفرين وقفت صدًى لجبل «عشق كبار».

– أبي غيمك صدى.

تلكّأ أبي ثمّ بكى.

بحث عن الصوت، صوتي ثمّ بكى.

لم يرني ثمّ بكى.

وفي المنزل الفسيح، الفسيح، في الساحة المفتوحة على سماء لم أدرك لونها، لكنّها ليست كأيّ سماء، عبرت من تحت القنطرة ودست الأعشاب اليابسة بقدمين مرتبكتين كمن يدوس خيوط مشنقته ويذكّر بموته المنسي، القنطرة ظلّلتني بحنوّ وتركتني لمساحات الهواء أبعثر ذاتي في المنزل الفسيح، أبوابه متطاولة تصرّ كما كانت منذ بدء الخليقة، تدهمني زجاجات الغبار المركونة إلى رفوف الإصطبل ورائحة البغل الأبيض، ذكرى أبي المنسوج من عمامات الهلام، أمي الفرحة والمرأة التي أصبحت زوجتي تراقب الخدوش، تقرأ ما خطّه النقّاش التركي على المزراب وتخمّن أنّ الكلمات القليلة هي عبارة في مديح الملك، الجميع يلتفّون حولي وأصبح مركزًا لدوائر مسطّحة ولأكياس مثقوبة وفراغ، سقف السماء واطئ ورأسي متطاول، الخراب في داخلي وقلاع الوهم المتهدّمة، أسمع صوت دبكات بعيدة، خالتي تتجسّس من ثقب الباب على غرفتي، الغرفة نفسها التي اكتشف فيها النقّاش التركي أنّ خالتي امرأة لا تحبّ الصلاة، تتجسّس عليّ، والمرأة المزدانة بقرطين وروائح تزكم أنفي فأشمّ كلّ الروائح إلّا رائحة الأنثى، المرأة اللامعة العينين، اللامعة الجسد، أوّل المساء تمسك بالرتاج وتنزله، تغلق الباب وتمنع الرائحة والصوت من التسرّب إلى الفناء الواسع، تطمئنّ على رائحة الفراش، رائحة الفراش كرائحة الموت، تغلق النوافذ وتبسط كفّيها لي وأنا ذاهب في الجسارة الأخيرة لا تحدوني رغبة ولا أمتلئ باليقين، ماذا يعني أنّ لي زوجة؟ لها نهد وفرج ككلّ النساء، تأكل ككلّ النساء وتنام ككلّ النساء، تطلق أصواتًا في العتبة أو حين يذهب المنيّ إلى آخرها ككلّ النساء. ماذا يعني؟ وأنا ابن الانتظار أمام البوّابات المغلقة. سبعة قرون، أنتظر انهيار الرتاجات لتتفتّح دمشق أمام قدميّ، أنا الباحث عن الملكة ذات الفرج الأخضر مستدلًّا على رائحتها بجذور الأعشاب، أأبادل جسوري بأرض محروقة وأبادل

نشيدي بزجاجات غبار مركونة على رف الإصطبل؟ أنا الذي راى العثمانيين ثمّ الفرنسيين ثمّ لست أدري، رافقت تسرّبهم ونسجت من الظلّ عمامات للغربان، واستدللت أخيرًا على رائحة الغرباء تحت جسر فكتوريا. المرأة الكردية تخرج من النهر تبني فراش السمّاق، ثمّ تهدمه لتعود إلى النهر قبل أن تغوص كان جسدها يلتمع، كتفها، رقبتها كانت تلتمع تحت ضوء القمر وأنا قرب أبي أراقب الضفاف، وعيناه الغائمتان بذكرى مقفلة على أمّ لا تفتح ساقيها إلّا مرّة كلّ قرن، بمَ يفيدني أن أضطجع الآن على فراش ممدود وسط الغرفة وخالتي تجلس قرب الفراش على الحصير والنقّاش التركي يتمّ صلاته، صلواته التي لا تنتهي، وأنفاس خالتي على الباب تراقب المرأة التي تعرّت، تعرّت تمامًا وأنا في الفراش أتآمر مع أنفاس خالتي، مع شهيقها المتقطّع، مع حلمتيها النابقتين الآن وأكتشف أنّ لي أعضاء كباقي الرجال ترتعش وتقذف، وأنّ لي نحيبًا كباقي الرجال وفي يدي صورة ليست لكلّ الرجال، أنتبه وأنا في كامل هنهنتي، الملكة، الملكة، الملكة؟

آخر صورة، أوّل صورة ويدي ممسكة بقوّة الرسمَ الوحيد، أنظر إلى العينين وأخاف من المجهول، أحسّ بالدفء بين نهدي المرأة التي أصبح يقال لها زوجتي، أتراخى وتنفرط أصابع يدي لتسقط صورة الملكة قرب الفراش، أحسّ بالدفء والغيبوبة، نظرات أمي إليّ تربكني، أجلس قرب نافذة أبي كأبي وأدخّن، بدأت أنتظر أن تعود البغال من حرث الأرض غير مدرك سبب عودة أمي إلى العتبة لتغتسل وحيدة ثمّ ترحل، وخالتي لماذا تضع في معلف البغال حجارة بدل الشعير وتقف كلّ يوم تحت المزراب تبتهل للمطر من المساء الى آخر الليل، تذهب إلى حوض الزرع ترشّه بالماء وتتابع الليل تحت القنطرة، الصمت حولي وأوهام النساء. في السنة الأولى أو الأخيرة لمجيئي ونهايتي نسيت العشب المتسلّل من الخدوش ورائحة

البوّابات المقفلة، المرأة زوجتي تخرج مع أمي ولا أعرف الجهات. إلى قبر أبي أم غرف رجال الملك، صورة الملكة في يدي أكثر اخضرارًا والنظرة الحانية أكثر فتنة، عادت إليّ ذاكرتي لتوقظ كلّ الإغفاءات الممكنة، سنة وأنا أراقب الفراشات وأجنحتهنّ فراغ أخطّ عليه أناشيدي ليصفعني في ذروة الابتهال طنين اليعاسيب ويوقظني، المرأة مع أمي، زوجتي مع أمي الغائبة.

ساحة المنزل لرواح خالتي التي لم تعد تضحك ومجيئها، الرداء الذي ألبستني إيّاه بهت لونه الأخضر الفاقع، خيوطه اهترأت، أخذته، رمّمته ووضعته قربها على المخدّة، سنة أو قرنًا أو سبعة قرون وأنا أمارس الملهاة من دون أن أضحك. البغل الأبيض الذي استُبدِل ببغل أبيض آخر لم أستطع أن أتآلف مع رائحته، سبعة قرون وأنا في عطالة الأشياء أبحث عن عطالتي، لا أعرف لماذا ينام البشر كلّ يوم وعلى الوسادة نفسها، لا أعرف معنى الزفير. في الطريق إلى المقبرة، رأيت رجلًا، في منتصف الطريق أمسك بكفي، وقال:

— ...

قلت له:

– أريد أن أعرف أين يذهب زفير الموتى.

في الطريق، يدي معلّقة بيده، الأشجار الصغيرة لا تظلّلنا والسماء بعيدة، بعيدة حتى أنّني لا أراها، كلّ البشر حولي، وحولي فراغ، عند بوّابة المقبرة، والمقبرة من دون بوّابات يتركني ويذهب وحيدًا. ألحق به، صوت خطواته على التراب كصوت الجلجلة، يدي ممسكة بصورة الملكة التي استعدتها في أحد الصباحات القريبة حين بدأت أكتشف أنّ للمرأة رائحة الغثيان، خطواته واثقة متّزنة وأمام قبر أبي تقابلنا وجهًا لوجه، هو عند الشاهد الأوّل وأنا عند الثاني، خطوة واحدة وغاص في التراب إلى داخل القبر، شتمت كلّ

شيء حولي وتذكّرت أنّ رائحة السمّاق كانت تفوح من أرديته وما زالت تفوح من يدي، سمعت قهقهة بعيدة وصوته من تحت التراب حتى امتلأت حيرة:

– ارحل قبل أن تظلم المقبرة، فالليل لنا.

– أبي، أريد أن أتمدّد قربك، أشتهي الموت يا أبي.

– اذهب بعد قليل سنتسلّق أغصان الأشجار لدينا الكثير من...

ثم صمتَ، صمتُ.

رحلت من دون رغبة، أجرجر قدميّ بتثاقل، نادمًا لأنّني لم أغص في التراب وألحق به، جلست تحت القنطرة أمام خالتي الساهمة بعيدًا من عيون الرجال المفترضين، المارّة المحدّقين إلينا كأنّنا آخر سلالة منقرضة، سألتني:

– كيف حال أبيك؟...

نهضت من دون أن أحرّك لساني الذي بدأت البثور تكسوه مكبّلة إيّاه بين صفّي الأسنان المتوقّفين عن مهمّاتهما منذ زمن بعيد.

دخلت المرأة، زوجتي وأمي امرأتان تغصّان بالساتان والحليّ تحفّ بهما الروائح المضيّعة رائحةَ الأنثى، وفي ما بعد ذهبت إلى عفرين من دون بغل أبيض ومع زوجتي، زوجتي تحت جسر عفرين تغتسل بماء النهر وأنا على الضفّة الأخرى أراقب السيّاح المعتمرين قبّعات القشّ والكاميرات تتدلّى من رقابهم كالأرسان، ملتاثين أمام لوح نقش عليه رجل منذ عشرة آلاف عام قصيدة غزل لامرأة لم تحبّه، يراقبون نفور الأحرف ويلتقطون الصور، زوجتي تحت الجسر تغطس عارية في الماء العذب وأنا على الضفّة أنتظر الخلاص، كم أحبّ الضفّة اليسرى، حيث فراش السمّاق المهدّم وأبي الممتلئ عارًا! الضفّة اليسرى والمرأة الكردية، البازار، فراش السمّاق أجمل ذكرياتي حين كنت وهمًا أحاذي أبي كلّ أربعاء مع ظلال البغل الأبيض ووقع

حوافره المهذبة على الطريق الترابي المتعرج، فجأة انهار الجسر وتحطّم على رؤوس السيّاح ورأس زوجتي فانتابني الضحك.

ضحكت، وامرأتي تغوص في التراب، في النهر وتغرق تحت ركام كانت تعبره العربات والبغال والأغنام، أتت فرق الإنقاذ المتأخرة دومًا، غاص الغوّاصون في المياه التي لا تزيد عمقًا عن المتر، صفّوا الجثث، سبع عشرة جثّة وجثّة زوجتي في المنتصف، عيناها فارغتان إلّا من نظرة عتاب لم تحرّك فيّ شيئًا، جسدها منتفخ كأيّ امرأة تغرق، قدماها زرقاوان ويداها باردتان، إلّا أنّ نهدها كان مثيرًا أوّل مرّة، فوددت تقبيله مرّة أخيرة. بحثوا عن هويّات الغرقى، عمّن يعرف السياح، بعثوا إلى سفاراتهم وسط ضجيج إعلامي كبير وأهالوا التراب بعد أن حفروا حفرة كبيرة لفتيات الثياب ورجال صيّادين وامرأتي، ودفنوهم في قبر جماعي، بقيت زوجتي من دون هويّة ودفنت في قبر جماعي مع مجهولين وسائح لم يعرفوه أنّه أخطأ الطريق إلى عفرين بعد أن أقنعه رجل عفريني بأنّ الحجر الذي بين أيديهم أهمّ رُقم قديم، فاندهشوا وتابعوا إلى الموت مندهشين، كان الحجر منزوعًا من خمّ للدجاج ومن قبل كان شاهدًا لقبر رجل ضاق به الموت فتبعثر.

فجأة، أحسست بأنّني من دون زوجة، وحيدًا مرّة أخرى وكما أنا دومًا ومن دون قميص، عاري الصدر مستمتعًا بشمس المساء الآفلة وبقايا السيّاح التي غصّ بها الأولاد البالغون خردة النحاس والمارلبورو في مدينة لا نحاس فيها ولا تدخّن إلّا التبغ المفروم، حصل الدفن من دون أيّ ضجيج والجسر ظلّ منهارًا إلى آخر الزمن. البهجة تحفّ بي ويداي فارغتان إلّا من صورة الملكة ورائحة السمّاق، تدثّرت بقطعة قماش متّسخة لسائح لم يغادر إلى سفارته إنّما إلى القبر الجماعي تاركًا وراءه مصوّرة سوداء حديثة، جواز سفر أخضر، بضعة دولارات،

القلاعا ملوّنة، صورة امرأة شقراء عجوز وتافهة الأنف، الكثير من صور القلاع وأسماء الفاتحين، قذفت بكلّ شيء إلى النهر، تلفّعت بالرداء، الفراشات تحفّ حولي ضمن رفوف متداخلة، استقبلت الطريق الشرقي إلى حيث بوّابات بيتنا المنتظرة قدومي الذي لن يأتي.

III

ما أنا إلّا حارس الخديعة وملك أثوابها المثقوبة، أدخل متاهة صمتي الفارق في سكون الأشياء، حولي القبور المبعثرة، الأبواب المفتوحة على غرف مهجورة من دون أنفاس ومن دون ستائر، النوافذ المخلوعة، الدروب المقفرة والذكريات البعيدة، أترك الجسر المنهار على رؤوس السيّاح وضفاف النهر العابقة برائحة السمّاق ووقع حوافر بغل أبي الأبيض، على دربه الذي يعرفه أكثر من أيّ درب آخر، أخبّ مسروزًا بخلاصي من حموضة إبطي زوجتي ذوَي الزغب الأسود، ممتلئًا بوحدتي كثوب برلون مهمل في صندوق خشبي إلى جانب علب الكريم وزجاجات العطر الرخيص كالتي يحضرها الرجال لأمي فتدوّخ أدمغتنا الطرية وننام أنا وإخوتي قرب العتبة، متحسّسين أحذية الرجال والشخير المتقطّع، أواخر الليل تبرد أقدامنا، أمي تشهق، ونحن نبكي بصمت حين تبكي.

لا ندري لماذا تبكي، ما دامت تحت اللحاف ورائحة غريبة تنتشر في أرجاء الغرفة.

الشجرة تعصف، ونحن قرب الإصطبل نعدّ زجاجات الغبار على الرفوف ونعرض أجسادنا للشمس، تفتح أمي الباب نضرة وواثقة.

أنا الهاذي الأكبر أعود إلى خرائبي مهجورًا من أعين المستقبل وجحوره المسدودة، في منتصف الدرب كان البغل يحرن وأبي يبتسم، استدرت كمن يودّع أمكنة ستنسحب من ذاكرته إلى الأبد. رأيت الجسر المنهار، دعائمه تغوص في الماء وأخشابه المبلّلة متروكة للتيّار وأذرع الرجال العارية وظهورهم المتجلّدة العضلات. الضفاف المتسابقة إلى المساء، العويل، نقيق الضفادع، الحزن في عيون النساء، يداي في جيبيّ والطريق طويل إلى بيتنا، إلى القنطرة التي سأعبرها وحيدًا من دون زوجة ومن دون... أمي التي أمام باب غرفتها تنتظرني مفتونة ببرودتي وصفيري المتعالي كالنشيد في سكون فسحة الدار، نهداها متدلّيان من دون مشدّات والحلمتان تنبقان بخجل بين التجاعيد.

– هل دفنتها؟...

ضحكت متراخيًا، كنت ملطّخًا بالوحل ومنهكًا، جثث الغرقى ممدّدة على ضفّة النهر وزوجتي في الوسط تحدّق إليّ بعينين مستغيثتين.

– اغتسل... رائحتك كرائحة الفطيس.

تقول أمي متابعة طريقها إلى الباعة القادمين إلى القرية، الباعة الذين يأتون إلى الساحة الوحيدة، الساحة المعدّة للأعراس، لمرور الحشود إلى المقبرة ولاصطياد الخفافيش في أمسيات الصيف، تأتي العربات المحمّلة بالأقمشة وجوز الهند، بأقراط ملوّنة خرزية ومعدنية صفراء كالذهب ذات رنين بائس، النساء يتجمهرن، يبادلن البيض المخبّأ في سلال القشّ والحنطة «المصوّلة» والدجاجات بالأقمشة، بالأقراط، بزجاجات الكولونيا، بالخرز، بالسراويل الداخلية، بأغطية الرأس.

الباعة يتلصّصون على نهود الصبايا ولمعان عيون النساء، الباعة في الساحة المعدّة للولائم ولنصب قدور «السليقة» يضحكون، من تحت الدواليب، من وراء عرباتهم والظلال تحميهم يمدّون أياديهم إلى أفخاذ النساء، إلى فروجهنّ، النساء المبتهجات، الخائفات، يغرقن في البرلون والظلال الشفّافة، الرجال على الأحجار وفي طريقهم إلى اللاشيء يلفّون السجائر، يرحّبون بالباعة، يشمئزّون من الباعة، من لحاهم الحليقة ووجوههم النضرة، من بغالهم المشنشلة بالخرز وسروج السجاد الرخيص، العربات تأتي محمّلة وتعود محمّلة، في المساء نتفرّغ لاصطياد الخفافيش، وأنا قرب عجلة العربة الضخمة أعدّ المسامير والدوائر الموصلة إلى حلب، يد البائع تمتدّ وأمي لا تمانع كثيرًا أن تعود مع واحد من هؤلاء الباعة ليملأ لها زجاجات عطرها الفارغة ويتوسّد الفراش الممدود وسط الغرفة.

في الصباح الذي لا أعرف كيف تسلّل ضوؤه خرجت إلى الفسحة متدثّرًا بثياب أبي التي كان يرتديها قبل أن تبني المرأة الكردية فراش السمّاق وتهدمه، متثائبًا من هديل الفراشات التي ما عادت تتقن سوى الأزيز والحوام في فضاءات مفتوحة على الموت وذكرى غرباء دخلوا ورحلوا تاركين برازهم وسراويل ممزّقة في زاوية الغرفة المستطيلة ذات الجدران الكلسية والمسامير الصدئة، أمي تسكب الماء في العتبة، وكم هي نضرة بعد أن تغتسل وتفرد جدائلها المحنّاة، فراشها ممدود على مفارق الطرق، والطيور تحوم حوله هادلة بأجنحتها، حاجبة الشمس والهواء، أمي تحبّ الظلال والنوافذ المغلقة والضيوف المتأخّرين.

صورة الملكة تلحّ عليّ، تلكزني في ساقي اليمنى، أسمع اختناقها في خرائبي، صوت حشرجاتها ونشيجها يتعالى، يا لنشيجها حين يتعالى عذبًا، طريًّا، ناعمًا يتعالى!

حين تتعالى أصوات خالتي التي عادت للبس الأثواب المقصبة والسراويل الفوسفورية، تاركة حلمتها الضامرة تغازل المزراب المغبر. متحدّية الحجارة والقنطرة الساكنة، القنطرة التي عبر من تحتها أبي على بغل أبيض مزدهيًا بوقع الحوافر، ثمّ ممدّدًا على باب محمول على أكتاف الرجال، تلكزني صورة الملكة، وسبعة قرون أتعبت قدمي من الوقوف أمام البوّابات، رائحة غريبة تنتشر في فسحة الدار تزكم أنفي وتدعونني إلى الرحيل مرّة أخيرة إلى أن أعود على باب مقذوف في مؤخّر إحدى العربات، للرحيل عن هذه الفسحات المعدّة لتابوتي منذ الآن قبل أن أدخل فصول الهذيان وأخبط قدمي تحية للنشيد الوطني وللعلم المرفرف فوق السارية غير عابئ بنظرات الرجال المتسائلة عن سرّ خلط ألوانه، وعن قيمة قطعة قماشية لا تصلح إلّا لمسح الأحذية المغبرّة، كلّ شيء يدعونني إلى الرحيل.

أنا حارس الخديعة المحاط بالأغنيات والمدن الموسومة بالغبار والضجيج، في أيّ ركن سأقعى ككلب أجرب، أراقب المارّة وأفخاذ النساء المنتوفة الشعر، وفي الغرف الباردة سأجلس وحيدًا، وحيدًا من دون ظلّ ومن دون خالة تنتظر خروجي من المرآة لتغيب في النشوة، يدها تفكّ الأزرار المفتوحة عن صدر كالبراري، طليق تحت حفيف القماش الرخيص، غير آبهة بوجودي منتظرة التعرّي بين أيدي النقّاش التركي الذي رسم أحرف اسمها بإزميله وقلبه المتهادي إلى مواكب السلطان في الآستانة البعيدة؟ في أيّ ركن سأجلس قبالة الأبواب أعدّ مساميرها وأحفظ صوت صريرها، أنا المتهادي إلى الظلال الملوكية، الباحث عن الملكة خلف أسوار القصور وبين حوافر الأحصنة الطليقة كالريح؟ من سيعرف أنّ ملكة ذات فرج أخضر تنتظر مجيئي كالأنهار العذبة لأطفح على جسدها كرائحة الليمون المنسية، أو كعرائش ياسمين دمشق التي نمت على عتباتها سبعة قرون؟ داستني حوافر

آخر رسل العثمانيين ثمّ الفرنسيين ثمّ لست أدري، على أيّ سور سأنتثر بحبّات الحنطة أمام قطيع دجاج مكابر، ثياب أبي تضم جسدي كأنّها نهرا بمسامّي وتصمّها عن النداء، ذراعا خالتي مشرّعان في الهواء فوق حبال الغسيل، ذراعاها البيضاوان، نظراتها التائهة، تأمّلها الطويل في النقوش التي قالوا أنها آية الكرسي، وخالتي قالت:

— ...

لم تقل شيئًا، تابعت انتظارها مطر المزراب فحسب.

حين يهطل المطر تقف خالتي بأرق أثوابها تحت المزراب تبلّل ويتغلغل المطر في جلدها في مسامّها في أحشائها وتبتهج تلتمع عيناها تنتفخ حلمتاها وروائح النقّاش التركي تلفّ جسدها المبلّل وتهنهن خالتي تصلها النشوة متأخّرة وتغفو في فراشها يانعة كبرتقالة وتتضوّع في الغرفة رائحة اسمها المحفور وتحوم أنفاس رجل تنام بين ذراعيه حتى الصباح، الرجل يأتي ويذهب يدخلها كطوفان ويخرج من دون أن يراه أحد.

درب المقبرة موحل ويحلو لها أن تتمدّد على أعشاب القبر ضامّة جانبيه بذراعيها هاتفة لمجد رجولته الزائل ينهض الأموات وعلى صوت الدفوف يرقصون خالتي مبلّلة تحت المزراب منتشية بالفصول الأربعة كالطيف وحيدة تحت المزراب تقشّر الكستناء وتحمل صدر الزبيب والتين اليابس إلى... حيث الدرب موحل والأعشاب مبتلّة كجسدها.

القنطرة، زجاجات الغبار على رفوف الإصطبل، الأحجار المرصوفة في فسحة الدار، ذاتي المتداخلة مع الأشياء والآخرين، الغربة وبرودة الغرفة، صورة الملكة التي أسمع أنفاسها المتعالية والهاتفة بدواليب العربات التي كنت أعدّ مساميرها وعدد الدوائر إلى حلب. ضمت في الطريق والباعة متزاحمون، أياديهم تمتدّ إلى

الأفخاذ الناعمة المتشهية المنيّ ودفء العناق، الدواليب تدور وأنا أعدّ المسامير.

صعدت الدرج المتآكل إلى غرفتي، غرفة زوجتي التي دفنت في حفرة واحدة مع السيّاح المتشهّين جدائل نساء الشرق ورموز الأحجار في دروبه، العتبة متشقّقة وإسمنتها حزين، المسامير على الجدران تتثاقل تحت وطأة أثواب امرأة لن تعود وتندسّ بنسيجها ساترة عريها أمام زوج يحادث صورة ويدور في الليل حول أسوار القصور المشمشعة بالرخام وسقوف الفسيفساء وغباء الخصيان، حاولت استرجاع صورة زوجتي، العينين، الحاجبين، الصدر الناهد، الساقين اللامعتين. ضحكت من غبائي وخديعتي، قذفت بالأثواب من النافذة وتركت المسامير عارية مغروزة في جدران عارية.

من تحت القنطرة إلى الدروب التي تؤدّي إلى غربتي تلكّأت قليلًا عند الباب الكبير، تمعّنت في الخدوش والحجارة الصامتة. حزن، حزن تسرّب إلى دمي، عليّ أن أغادر هذه المساحات الفارغة التي تهذي في فضائها الجثث، وتفوح من زواياها روائح الوهم والخديعة التي تلبّستني وجعلتني حارسًا لها.

الصمت، الصمت مدّ يده وودّعني، سرت وحيدًا يحفّ بي الهواء وذكريات الأمس القريب وها أنا مرّة أخرى أبحث عن خديعتي لأحرسها، فما أنا إلّا ملك أثوابها المثقوبة، ألملمها وأراقب ملامحها الضائعة وسط زحام الضائعين بين أردية السماء وانبساط الأرض، أتستّر، أخفي وجهي داخل معطف أبي وأتناسى كلّ شيء، وبعد قرون طويلة أجد نفسي وجلدي المتعب من مسامّه خارج دمشق، باحثًا في البراري عن يقيني ووحدة الأشياء، باحثًا عن اللغة وأسرار الأقفال التي لا تفتح.

الملكة في جيبي صورة باهتة، ناصعة العينين، خضراء الفرج وشاهقة الجسد، أخرج من جسدي وأتوسّد كومة أعشاب يابسة، أنام،

أنام قرنًا أو سبعة قرون، أسمع صرير البوّابات، وقع حوافر الخيل وصليل السيوف المقبلة من أعماق الزمن المنسي، أشمّ رائحة التراب المختلط بالرمال والنباتات الغريبة التي لا أعرف اسمًا لها، ودومًا، دومًا كما أنا دومًا سليل المتاهات والأصوات المنطفئة، أتحامل على جسدي المتيقظ منذ قليل نافضًا عنه غبار القرون السبعة وممعنًا مرّة أخرى في التشكيل الذي لا يحدّ، أسير وأمامي صحراء من المدن، خرائب، حارات مسكونة بالخفافيش، وحبال الهواء الساقطة في الآبار المهجورة، تعبرني وجوه من دون ملامح وأفواه متشقّقة، تسألني بصمت:

– إلى أين؟

أكاد أبكي، بوّابات دمشق أيّها الناس تدخلني وتخرجني كأنّني قشب، دمشق، دمشق أو القبائل والخسارات الممكنة وغير الممكنة تنام الآن لينهض الشعراء من آخر حبر لوّنهم، من آخر نافذة أطفأت المصباح الآن ومضت في دفء الأسرّة، ودمشق تحت الوهم، الخلفاء يزيّنونها دومًا بالساحات المفتوحة والقصور، بالفوانيس وصورهم، باللافتات الهاتفة لمجدهم ومجد أسلافهم وأحفادهم. أطلق يديّ وأعلّق على أسوارها أقراط عائشة وأذيال أثواب السيّدة زينب، كوفيّة علي وسيف معاوية الذي ما صدئ، ظلّ لامعًا مشحوذًا يقسم عليه الولاة ومندوبو الضرائب والسفراء الفرحون بأوسمة الشرف المكتئبين من الطواف حول قبر محيي الدين بن عربي، أمامي مدًى لامتناهٍ وخلفي صحراء من العدم، أمرّ بالأجساد المقدّدة، وأبحث في الخدوش عن وجه أعرفه، تتملّكني الوحدة ووحشة السفر، أصرخ بالصمت أن يكفّ عن الصمت وأصرخ بالصراخ أن يترك الضجيج.

في طريقي إلى ما لست أدري أقف على حافّة بئر. البئر كأنّها معدّة لاستقبالي فحسب، أخلع سامي وأحمالي وأطلق ليدي حرّية التلويح، البئر محاطة بأشجار قليلة تظلّل الطوق الحجري، على صفحة

الماء الساكنة أرى وجهي مرسومًا كأنني أوّل مرّة أرى وجهي مجدوزا، منمشًا والتغضنات تقتسمها التجاعيد المترهّلة، أسمع صوت نشيش الماء وأفاجأ بصورتي.

كانت المرآة الوحيدة في بيتنا معلّقة على الجدار الذي يحبّ أبي أن يخطّ عليه التواريخ التي تعنيه وكان يحفرها بمسمار فولاذي ينغرس في الجدار، مسجّلًا يوم مقتل معاوية ويوم دخول هولاكو بغداد ويوم دخول العثمانيين حلب ومن ثمّ اقتيد إلى حرب لم يعد منها إلا بعد عشر سنوات ولا يعرف أين دارت رغم كلّ محاولاته لتذكّر تضاريس الأمكنة التي حارب فيها آخر تاريخ خطّه قبل أن تخنقه أمي يوم ذهابه إلى البذار تاريخ قيام المرأة الكردية عن حجر، تاركة البهار والكمّون مشرّعة في بناء فراش السمّاق، بعد ذلك بقيت المرآة ذات الإطار الخشبي المحفور عليه ثعبانان ملتفّان حول رقبة امرأة تجاهد كي تخرج من حصارهما وحيدة من دون تواريخ مدوّنة بعد رحيل أختي مع بائع الأمشاط أمرت أمي بطلي الحائط بكلس أبيض وطمس خدوش التواريخ بالطين المجبول مع التبن وأختي التي كانت تقف طوال ما بعد الظهيرة تناجي المرآة وتدعوها إلى أن تنجب رجلًا يفضّ بكارتها ويأخذ معه رائحة خصلاتها المفرودة كريح عابثة تطاولت على المرآة أوّل مرّة نظرت إلى وجهي لا أدري كم من الزمن حتى اكتشفت أنّ وجهي لا يشبه وجوه الآخرين، في ما بعد حملت أمي المرآة وقذفت بها على حجر ضخم في فسحة الدار، المرآة تشظّت وبقيت مرآة خالتي التي كنت أخرج منها كلّما امتدّت حلمتها المشقّقة لتلامس سطحها الصقيل.

صورتي مرّة أخرى على صفحة الماء، أقذف بحجر وتبقى صورتي جامدة لا تضيع، وجهًا منذورًا للخراب، عيناي تائهتان، أتجسّس مرّة أخرى على وجهي، أتلمّسه بيدي فتمضي الأصابع من دون توقّف،

«أين الملامح؟»، أفزع وينتابني الغثيان من ملامحي، حفر العينين والأنف الصغير الذي أقسمت أمي على أنّه شبيه بأنف إسكندر المقدوني حين رأت صورته على صندوق «الغريبة» الكرتوني الذي أحضره أحد الرجال هديّة ووضعه بين يديها قبل أن يجتاز العتبة، تقاسيم الخدود، أهكذا يصبح وجهي مربّعًا ومستويًا كالأوراق التي يخطّ عليها الطغاة والتجّار تواريخهم وأسماءهم.

أفزعتني صورتي وانتابني الأرق فبكيت ونسيت عطشي، نسيت وحشة السفر وبوّابات دمشق المغلقة، لم أنتبه إلى حومان الغربان فوق رأسي وهجوع العصافير إلى أرديتي، نسيت كلّ شيء، ذاكرتي صفحة بيضاء ومرّة أخرى ولدت من الحجر حجرًا بذاكرة مثقوبة ويدين مهذّبتين خاليتين من الأظافر ورغبة المصافحة والوداع «والكفّ دومًا للوداع» هكذا كنت أغنّي حين تترامى السهول أمام حوافر البغل الأبيض وأبي فوقه مبتهج، الكفّ للوداع، الكفّ لضمّ امرأة وأبي لا يتنبّه إلى أنّني أسكن ظلّه وأشرد مع الجغرافيا التي لا تنسحب من تحت قدمي الوهمية، إذًا من أنا أيّتها البئر، والبئر صامتة كالرجل الذي كنّا نركض وراءه أنا وأختي ونسمّيه عمّي، أتى ذات يوم وقال:

– الأشجار خائنة، والنساء خائنات.

وصمت قرنًا.

ذات صباح، استيقظنا، كان عمّي متأرجحًا بأنشوطة من حبال الليف، ذهب مساء إلى بيته، وبيته قريب من مرمى نظر أبي حين يجلس على حافّة النافذة ويدخّن، منتظرًا أن تعود البغال من حرث الحقل، عقد أنشوطته وعلّقها على شجرة توت أمام بيتنا، أتت زوجته بكت قليلًا وتهامست مع أمي بضع كلمات ثمّ سكتت، المرأة مضت، وفي المساء دفن عمّي من دون صلاة، استنكر الشيخ والرجال

فعلته. ترك عمّي وراءه أوراقًا ذات يوم سأخرجها من صندوقي الذي أحتفظ به بالكثير من الأسرار التي التقطها، صندوقي مطمور في أرض الإصطبل، تحت أحد الرفوف المثقلة بزجاجات الغبار.

عمّي قال الأشجار خائنة، نصب أنشوطة وتأرجح، كنت أحبّ قدميه المفلطحتين حين تخبّان على الدرب الترابي، كان لعمّي شاربان عريضان وامرأته بكت قليلًا وتهامست مع أمي، وفي الصباح التالي لدفنه اغتسلت وقطفت غصن حبق وشكلته في شعرها.

الصدمة المباغتة أحالت الرجل المكتشف خيانة الأشجار إلى ماء ساكن، كان جسده يتدلّى كألف معتمرة قبّعة ومنكّسة الرأس، ماء ساكن لا تحيله الحصى إلى دوائر ويبقى صوت النشيش، كان عمّي يحبّ التدخين وبغاله، وأبي قال:

– كان رجلًا حزينًا.

الحصاة الثانية التي رميتها ظلّت طافية على السطح من دون أن تخدش صورتي المسطّحة، حول البئر آثار صوف مغسول، ورائحة أقدام إناث أنهين غسل نهودهنّ والتراشق بالماء، حول البئر آثار بغال القوافل التي بدأت أسمع أصواتها بعد أن تمدّدت قليلًا تحت الشجرة، كان الرجل الذي نسمّيه أنا وأختي عمّي، مهرّب تبغ على حدود تركيا، تمضي بغاله ذات الأجراس الصامتة والبرادع الملوّنة، تخبّ بغاله الخجول على الأرض مطرقة أنظارها في الحصى المقذوفة، تدخل حقول الألغام وتعرف درب الأمان، والذي نسمّيه عمّي وهو ليس عمّي يتسلّل خلسة خلفها، البغال تقوده، يمسك بأذيالها ويحفظ موقع النباتات والورد الممنوع من الاجتثاث، عمّي خلف البغال وحرّاس الحدود نائمون، يفصفصون البزر ويتغاضون عن البغال، الحرّاس الشركاء يشمّون رائحة أحمال التبغ ويستمتعون ببهجة البغال المسرعة إلى معالفها، أنا وأختي أمام الباب منتظران الذي نسمّيه عمّي، وأكياس

«القمردين» التي يحملها إلينا، الدخان لأبي والقمردين لنا، وأمي أمام الباب تلتقط كيسًا من يده توصيه عليه دومًا، الكيس مغلّف وأمي تبتهج، أصابعها ترنّ وهي تفضّه، تغلق الباب على نفسها، وحيدة تفضّ الكيس، وأبي في فسحة الدار منتظر أن تعود البغال من حرث الأرض مثرثرًا مع عمّي حول أسعار التبغ ودروب التهريب، حول الأمطار وأخيرًا حول عفرين والبازار، أصبح أبي يضحك وعمّي بقي حزينًا يفكّ أزرار ثوبه، يشهق ويعبّ الهواء كأنّه يمنع الاختناق أو الدمع.

تمدّدت تحت الشجرة وتراخت أعضائي، البرودة تغلغلت إلى عظامي غير المغطّاة سوى بجلد مهترئ، غفوت طويلًا وفي الحلم، حيث الصور المتداخلة، النساء والعرائش، قوافل البغال ودروب عفرين، الغرف الحميمة والبوّابات المقفلة، الملكة ورجال الملك، في الحلم المعدّ لاستباحة اللحظات القاتمة مرّت من ثقوبي أسراب الضفاف هاربة، شممت في خطوها رائحة السمّاق مرّة أخرى، أزكمت أنفي فتشهّيت الموت وقبر أبي، دخلت مدينة لا أعرفها، شوارعها سوداء، حجارتها سوداء، وجوه النساء، أطراف الرجال، عيون الأطفال، النوافذ، الأبواب، أوراق الشجر، الرئات الموغلة في الشهيق، كلّ شيء أسود، دخلت، تهت في الدروب، هرب الأطفال واستنكرت النسوة بياض حاجبي وإشعاع الضوء في كفّي، أغلقت الأبواب وتطايرت الشتائم من النوافذ مع غبار الطلع الذي تراكم في كفّيّ وتناثر في أرجاء جسدي، استوقفني رجل حوله تثغو قطعان ماعز وصوت الدفوف منتظم يحكم إيقاع اللحظة، رأى بياضي ونطق كلمات التقطت منها أرضك، غريب، قمر، خواء، ثمّ أعاد على مسامعي كلمات قد تكون قد قيلت ولم أنتبه، أعدت تجميع الأحرف وفزعت من ثغاء الماعز وصوت الدفوف المتعالي، اللغة اغترابي في مدن الأقفال. سرت فاستوقفني بيده الممدودة، كدت أصرخ، صرخت وتبقّعت حبال

بالصدإ. السواد حولي وصوت الدفوف اختلط بصليل أسلحة وأناشيد الجنود، اقتربت من الرجل، أمسكت بطرف ردائه الأسود، أحسست بالأمان، انهار الصدأ وتلعثمت الكلمات:

– أين أنا يا سيّدي؟

– ... أرض، حدود، ملك.

– أين أنا يا سيّدي؟ أمهلني قليلًا قبل أن أموت.

– سواد، آبار.

– ...

– ...

رداؤه رقيق وأصابعي متمسّكة بقوّة مؤمن تقرّحت قدماه حتى وصل إلى مكّة.

– أنت في أرض الملك.

– الملك؟...

– وعليك الرحيل فورًا.

النوافير السوداء المتنوفرة، والعشب الأسود تحت قدمي، تذكّرت الملكة، صورة الملكة والحلم، الحلم حيث أختي جالسة قرب خمّ الدجاج تنتف ريش الديكة لتصنع تيجانًا للملوك المقبلين، يزرق اللحم، تتقاطر الكائنات فطسة، تبتهج أختي وولدها يحرّك القتلى بعصاه المدبّبة، تبتسم أختي وزوج أختي ينثر القرمز على درب القبر الجماعي المعدّ خصّيصًا بشواهده المسطّحة للموتى الخارجين من القنّ.

أختي تنظر إليّ كأنّني واقف وراء كاميرا للتصوير السينمائي وهي تؤدّي دورًا متقنًا. رائحة الفطيس في الهواء ويدي على مزاريب الرياح مستغيثة بأبي المجلّل بالعار وبالتراب. اختلطت الصور في الذاكرة وما عدت قادرًا على التقاط التفاصيل المبعثرة. وجهي

المثلوم، ذراعا أمي الممدودتان للغرباء، بغل أبي، مدينة الملك ونوافيرها المنوفرة، السواد وضفاف نهر عفرين، جسد خالتي الأبيض المستلقي بكامل نبيذه على فراش مبتهج برائحة سيلانها، خالتي ذات الندبة الدائرية على خاصرتها اليمنى المحفورة كوشم أو كمكان معدّ لشفاه النقّاش التركي الذي كان يستعجل الوصول إليها ليتوقّف طويلًا قبل أن يصعد بشفتيه إلى الحلمة المتورّدة.

كانت تُسمّى امرأة الخدوش، وكانت خالتي تعدّ أعشاشها العابقة وتطهّر خدوشها بزجاجة عطر تخبّئها في صرّتها بين كمّي قميص شفّاف من دون أكمام، ترتديه وتتثاقل أوّل الصباح حين يغادرها النقّاش التركي منهكًا مفعمًا بأعشاشها، بخدوشها، حيث يقف في العتبة ناعسًا، تنهض خالتي عارية، جسدًا خصبًا، منطفئ الشهوات، نضرًا باللذّة والولوج، صدرها الناهد يمتشق فضاء الغرفة كفارس لا يترجّل عند البئر كي يشرب، بل تصعد المياه إلى شفتيه، ترتدي قميصها الأبيض الناعم فيبتهج جسدها بالنسيج المثير ويتطاير شعرها مرّة أخرى، وثوبها الأبيض يتطاير، النقّاش التركي يترك العتبة عاريًا، يحتضن الجسد الذي لا يحبّ الصلاة، يذوبان على الأرض، يتطايران في غبش الصباح وتنهّد الفناءات، يتدثّران برد أوّل النهار ويشهقان من نعومة النسيج. الصباح مثير والفضيحة مستترة. خالتي بأثوابها السوداء تعبر الفناء إلى درب المقبرة، تفتح باب المزار وتركع عند قدمي الوليّ الصالح، النقّاش التركي يصلّي، مكّة في كلّ الجهات والعتبات باردة، تهزّه القشعريرة وينهض، يعتلي القنطرة وينقش الندبة والخدوش الثلاثمئة، خدوش خالتي التي تشعل الشموع في الليل وتتبرّك بالقماش الأخضر، تخرج من باب المزار امرأة ذاوية، باهتة، كثيرة العفن وفي مفاصلها فراغات لريح تكنس عمامات الأموات، خالتي التي لا تحبّ الصلاة وتُسمّى ذات

الخدوش، على المزراب حفر النقّاش ندبة تتجمّع المياه فيها حتى تطفح فتندلق، تعود خالتي وتعبر من تحت القنطرة التي يعتليها رجل الليل كبغل مسافر من دون عودة، صوت أمي يملأ الفناء، ضحكاتها تتعالى شامتة بخالتي، بخدوشها وبتقزّزها من أعضاء الرجال المازين في طريقهم إلى السأم، تقيس أعمدة الخيام المتشكّلة في مقدّمات الرجال وتخبرهم عن الأطوال، تشمئزّ خالتي وفي الليل تفرش عضو النقّاش التركي بين يديها وبين كفّيها وتقيسه مبتهجة بالسنتيمترات والمليمترات بخيطان القنّب المستعملة كمتر. خيط القنّب الملوّن بالأزرق والأحمر ما زال معلّقًا في رقبتها من دون أن تدري أمي أنّ ذات الخدوش تملك مترًا للقياس ملفوفًا مع أطواقها ومخبّأ بين ثدييها، وحين أخرج من المرآة يتدلّى أمام عيني كأنشوطة للذكورة العذبة، تختلط الصور في ذاكرتي، أنا الطفل المتباهي بأطواق الوهم وزجاجات الغبار، قامتي مائلة وأتساقط على صفحة الماء الساكنة المعدّة لخروج المرايا.

تنتابني قشعريرة ويمتلئ عمودي الفقري بالهلام، يدبّ الوهن في أوصالي وأكتشف أنّ لرأسي قرونًا، أتثاقل، أتّكئ على ظلّي وأبهت بين يدي الشجرة، حولي الصمت، داخل البئر الصمت والذاكرة تعلنني حارس الخديعة.

أنا حارس الصمت والطريق إلى دمشق طويل وممتلئ بأسباب القطيعة مع الأشياء، أقعى وتهجع نسمات الليل الباردة إلى أرديتي، سرت ونمت، عند الشجرة توقّفت، قرنًا أو سبعة قرون، غطّاني الغبار، داستني حوافر آخر رسل الخلفاء العباسيّين ومن ثمّ العثمانيّين، سرقوا ردائي الممتلئ بالأصداف، عصبوا عينيّ، وقالوا:

— انتظر سبعة قرون أخرى.

مرّت جحافل الترك ثمّ الفرنسيّين ثمّ لست أدري، جميعهم تأكّدوا من إغماض عينيّ ومن عريي وفمي الطافح بالنمل وأذيال ثوبي المهترئ، وقالوا:

– دعوه سبعة قرون أخرى.

في الصباح، استيقظت، الشمس غائبة والبئر بعيدة وحولي في الأمكنة اللامرئية جلبة، كالمنبعث من أعماق الكهوف، حزن تسرّب إليّ حين توضّحت هياكل الأمكنة المحيطة، رماد، رماد، لون الهواء والشجرة، صوت الفصول الأربعة، حافّة البئر، الغيوم غير العابرة، غير الموجودة والسماء التي تعرّيت أمام أبوابها وسرت متثاقلًا إلى بوّاباتها، رماد أحال مسامّي إلى صديد، اجتاحتني قوافل التتار والمغول، خرجت توابيت الخارجين متقاطرة على جسدي، توابيتهم المزدانة بالريحان وأبيات شعر منقوشة على ألواح الجوز العنيدة، نساء وأطفال ورجال خرجوا من جسدي يفسحون الطريق إلى المقابر، نساء يشبهن كلّ ما رأيت، أمي، خالتي، زوجتي، جارتي، زوجة عمّي، المرأة الكردية، يشبه بعضهن بعضًا ويلوّحن بالأعواد نفسها، أعواد الريحان، استيقظت كأنّني خارج المجرّة أنتظر دربًا إلى الأرض، تتعالى الجلبة حولي وتقترب الأصوات، أصوات رجال، نساء، أطفال، بيوت تطير في الهواء وتطوى تسدف على ظهور الحمير، كرنفال ألوان، رجال يبيعون ويشترون من أنفسهم المسك والرمّان المفروط، التين اليابس والقديد، نساء يملن قليلًا على الشمس وينتفن شعر أفخاذهنّ.

الظلال مرآة الظلام، وأنا ساكن الظلال، كنت أسير في ظلّ بغل أبي العائد من البازار، ألتقط من منخريه بخار الماء وأعبّئه في جيوبي ومن على السرج كانت قطرات الندى العابقة بروائح السمّاق أوّل المساء توقظ غفلتي، يسير البغل وفي ظلاله أرتمي قطرة وهم، يسير فأسير، يتوقّف فأقف، يحدّق أبي في الأفق الغربي وأرى رأسه

الملتصق بالسماء، ركبته ورأسه، هامته الشامخة، عيناه على الضفاف التي أضحت بعيدة، فرح دفين يتسرّب إليّ وأنا أجمع قطرات الندى في أذيال ثوبي الوهمي، أصنع عقدًا وألفّه حول رقبتي فأتطاول قليلًا، الظلال مرآتي، الجلبة تتصاعد، تختلط الأصوات، أقترب من الحشد وعلى كتفي رداء أبي.

– أريد ماء.

– الآبار بعيدة، وجرارنا مكسورة.

رداء أبي على كتفي المخلوعة، تنفلت الأكمام وتسقط على الأرض، أبقى عاريًا وعلى ظهور الحمير تتدلّى الجرار الفخّارية المهشّمة، تداركت انحنائي، وخرج صوتي مرّة أخرى:

– خذوا ردائي، وأعطوني خبزًا.

– لا نبيع شيئًا.

– ...

– نحن أولاد الخديعة.

الخديعة وهتفت كمن رأى ليلة القدر تخطفه إلى ممالك النور، حيث الدروب مشعّة، معطّرة والأردية تهفهف في السماء كالحمامات البيضاء.

– أنا حارسكم.

– ...

التمعت عيناي، ودارتا في المشهد المفتوح على الرحيل الموسوم بالخطوات المعطّلة، هتفت مرّة أخرى، وكان صوتي نحاسيًا مشبعًا بالرنين.

– أبحث عنكم منذ سبعة قرون، انتظرتكم على البوّابات المقفلة وتماركت مع الهواء من أجل أثوابكم.

الصمت، الصمت والرجال يشترون من الرجال ليعودوا يبيعونهم مرّة أخرى ما اشتروه، النساء يتكحّلن، نصبن المرايا في الهواء وخلعن الثياب الثقيلة، رفعن الجفون وتكحّلن، أتعلّق بظلالهنّ كخفّاش مكسور الجناح وأتدلّى من بين رموشهنّ كائنًا زائدًا عن الحاجة، البراري حولنا وأضواء المدينة بعيدة، أجلس على الأرض قرب رجل يبني قاربًا، يدفع الشراع وينتظر، أسمع هسيس العشب تحت أقدام القافلة المتوقّفة. الرجل يطرق رأسه في الأرض، منتظرًا شيئًا ما إن يأتيه، الصمت بيننا جزيرة لا تغرق:

– أبعيدة دمشق؟

نظر إليّ متثاقلًا، فرد قطعة قماش خضراء بين أصابعه، قطعة القماش شراع جديد بعد أن تمزّق القديم وتفسّخت أخشاب المركب.

– سيّدي، سبعة قرون وأنا أمام البوّابات، أبعيدة دمشق يا سيّدي؟

– أنت في دمشق.

نهض الرجل حزينًا إلى الأخشاب المتفسّخة، شتم الشمس ورياح البراري، مال قليلًا واتّكأ على حدود الفضاء اللامتناهي، لعينيه طعم العفونة واخضرار الطحالب المهجورة على مسيلات الأنهار الجافّة، وسط دهشتي وفرحي، الرجل نهض إلى أخشابه المتفسّخة، صنع تابوتًا، اثنين، ثلاثة، سبعة توابيت، ولم يتلفّت، تعمّم بالقماش الأخضر، صلّى على التوابيت وتمدّد، وأنا كمن يغرق في نهر عذب نهضت قامة مسروقة من الضياء وتشمّمت رائحة دمشق. إذًا، دمشق قريبة، أنا فيها، هي فيّ، متغلغلة في نسيجي أسبح في فضائها، داخل أسوارها، قرب خرائبها، داخل لحاءات أشجارها، الأضواء المتلألئة البعيدة، الدروب المقفرة، الوجوه المعفّرة بالخوف وحولي بائعو الخديعة والنساء المترامیات على المرايا والكحل، غبار القافلة

وضجيجها يتعالى، أستدير وأرى المتأخرين، قبلتي دمشق ووجهي ميمّم نحو الخرائب. كيف تسكنني دمشق ولا أهتدي إلى رائحتها، إلى ياسمينها وقباب مساجدها؟ كيف خرجت من جلدي سبعة قرون وغازلت الأبواب المقفلة؟ رداء أبي يدثّرني والهواء البارد يلفحني. وجهي مبولة المدينة. يتوقّف الحرس ورجال الملك قرب خدوشها يفرغون ما في بنادقهم من روائح البارود وما في أعضائهم من نشادر، وفي الطريق من دمشق إلى دمشق يتساقط جسدي، ألمله وينمو عاري، يرافقني ظلّ أختي المبتهجة بمسامّ زوجها وزوائده، يغمرني ويتسلّل خلسة إلى إنكساراتي، «ما زلت تائهًا، تائهًا، لا تعرف دروب المدن ولا رائحة المطر، كم مضى على غربتك أيها الولد الصغير؟». يغصّ الحنين في حلقي وأعيد رسم دمشق، شوارع مألوفة، ساحات مدوّرة ورجال مزنّرين بالأنهار، نساء ممتلئات كسلال الفرح والبهجة، تغمرني الأضواء وأتشمّم روائح الغرباء، تمضي وجوههم قربي، مسرعةً تمضي، متعبةً، خائفة، شمعية، لا أحد يمدّ يده مصافحًا، الضجيج والصباح، دخّان العربات وروائح المطّاط، أمي فاردة شعرها بثوبها الأسود الطويل وعصبة رأسها تبيع المهرّبات في ساحة البرامكة، أمامها تناثرت أكياس الشاي Lipton وقناني السكوتش، وعلب الدخّان الأميركي، على كتفيها بناطيل الجينز وشالات القصب، أمي تبيع المهرّبات وتجادل الزبائن على الرصيف الممتدّ إلى الجامعة، بشر كثيرون، الجميع يبيع المهرّبات، رجال بثياب عسكرية ومدنية، أقف أمامها، تجادل زبونًا، أشمّ رائحتها ورائحة الفراش الذي قذفتني عليه كمن يبول على كومة قشّ ثمّ يغتسل، تنظر في عينيّ، عيناي مبتهجتان بالوصول تقرأ حوار البئر وظلال الشجرة، شتائم بائعي الخديعة، طويلًا وقفت أمامها كتمثال روماني جامد. لا أدري سببًا

لاستقامتي ويباس خطوتي، أصوات الباعة المتداخلة مع صرير عجلات العربات المغادرة إلى لبنان.

– أمي.

– اذهب، رجال الملك يبحثون عنك.

فرحت، تملّكتني بهجة عارمة، هناك رجال يبحثون عنّي، يسألون المارّة والمخبرين عن وقع خطواتي وشكل أنفي، يراقبون البيوت منتظرين مجيئي، تحسّست صورة الملكة التي تناسيتها قصدًا لأرتاح من بلل روحها وعذاب الانتظار المملّ الذي قرّح قدميّ وملأ ذراعيّ بالثآليل، صورة الملكة في جيبي ويداي ممسكتان بالحدود لانفلاتها الآسر، أصفّر وأقفز في الهواء، أنفاسها تغازل ثقوبي، لا بدّ سيحاصرونني بالبنادق والوجوه الشرسة ويضعون صورة الملكة في إطار مذهّب كي يدفنوه على الجدار، وفي حفلات الكوكتيل، في البيانات الانتخابية المزيّفة وفي مهازل الأضواء والمؤتمرات الصحافية، سيوثقون يديّ في سلاسل الحديد الصدئ ويقودونني إلى سراديب دمشق، هناك سأتشمّم رائحة العفن وبول الرجال المقذوفين إلى الموت، كم سأتشهّى الرصاصة؟ كم مشنقة سترتفع أمام نافذتي الصغيرة وأحسّ بعذوبة الحبل حين يحمل إليّ الخلاص، الخلاص من تحديق الجرذان و«نعوصة» الفئران، من جلافة الجلّادين وأكياس الرمل التي ستملأ فمي والقوارير التي ستنسرب عبر ثقب مؤخّرتي؟ وقفت على حافّة المدينة وأنا أسير، ضيّعتني المرايا، كانت الشبابيك المحاطة بالعرائش والزجاج الملوّن المتستّر على بهجة الفحيح وضجر الأسرّة، وكان الليل في الشوارع، أوّل الليل، حيث الرطوبة والوجوه المسرعة إلى المنازل، تحسّست جسدي الذي خرج من جلدي متستّرًا بالأردية معتمرًا وجهي الشمعي وسار في الشرايين التي لا تحتمل الأسماء، حيث المنعطفات والبوح المخفي في اللحاءات الهرمة، صورة الملكة في جيبي، الملكة

ذات الأبهاء الواسعة والحدقات التابعة ضوءًا وريحانًا، ذات الفرج الأخضر والجسد المتماوج بالصهيل والنبيذ.

في طريقي إلى جسر فيكتوريا، حيث الغرباء يرفعون القبّعات لمجد الهواء والأعمدة المعدّة لتعليق صورة الملك، الطالبات المتأخرات، المتحسسات هسيس الرغبة في العيون المتلاقية والدامعات في الغرف الباردة، على الإسفلت أفرش خطواتي الواثقة في أنّ هناك عيونًا تبحث عنّي، أضحك من المخبرين الذين لا يعرفونني رغم لوائح الأوصاف، ينصبون لي الكمائن وأعبر، أعبر كالهواء، كالنسغ وأختبئ في عصب الأوراق، التكية السليمانية والبطّ الهرم، صليل السيوف والخناجر وأطواق الفضّة، الساحة المفتوحة للضوء، لكاميرات السيّاح المراقبة للمشايخ المبتهلين أن تهطل السماء دموعًا، المتباكين على شرف المدينة، الرطوبة وبرودة المياه، نظرات البطّ المتثاقلة إلى الأفق وضجيج العابرين، وحيدًا وحرًا وصفر اليدين، مجلّلًا بغبار القرون وباحثًا عن دمشق في دمشق، عن الملكة والملكة في جيبي، راقدة في صوتي وفي نسيجي، تحت الجسر أجلس على كرسيّ من القشّ يأتي النادل الممسوس النظرات والمتفحّص، النادل المخبر المنصوب لخديعة الغرباء يتفحّصني، يشمّ رائحة الغبار ويمضي لإحضار كوب شاي رغبت في ارتشافه كما رغبت في تعرية فتاة محتشمة كانت تمرّ من أمامي، ضحكت بهسيس خافت وأحسست بحرية مثقلة بالحموضة، بوحدة مثقلة بضجيج دمشق، حولي كراس من القشّ تقاسمها عمال أفريقيون، طلبة تونسيون فاشلون سلفًا، رجال بلباس عسكري، مخبرون دوليون، منقّبون في أعماق المدينة، أزواج مقهورون، وآخرون من دون...

الجميع يتحادثون، يصمتون، يرسمون على الهواء الحامض حالاتهم، أنصب سلالمي من ليف وأتسلّق إلى القباب العالية، حيث العزلة ولغة الأشياء المنسية، أحفر مكانًا لقدميّ وآخر لحوافر خيول الغزاة، من وراء البلّور الملوّن أتجسّس على ذاتي، يرعبني الخراب وأضواء الحجر الخافتة، حيث كلّ شيء مرتّب، ديمومتي، تلاشيّ، موتي، أمدّ رأسي راغبًا في القتل، الرغبة التي انبثقت فجأة حين رأيت الديدان الحاملة الأعلام وأكفان الشهداء المثقوبة ورأيت العيون الزائفة وذاتي المتهدّمة، قدميّ المتعبتين من البحث عن الملكة ربّة الينابيع، أسترخي قليلًا وسلالمي تقذفني إلى الطرق المنذورة للدم المقبل وآيات الفراغ، من يشطرني الآن؟ من يفصد دمي ويعلنني ملكًا للوهم ورجلًا خاسرًا حتى أشراك العناكب؟ من يسدل على روحي الوداع ويدخلني جوهر الأشياء كي أتسرّب مرّة واحدة وإلى الأبد، أتسرّب إلى برودة الحقيقة؟ وهناك ستتراءى لي الأطياف التي عبرت معها نهر عفرين وجلست أعدّ عناقيد السمّاق على أقدامها وأقتفي ظلال بغالها. ستتراءى لي الأطياف، وسأشعر بمتعة الموت حين ألوّح للمودّعين نازلًا من قبّة المشنقة العذبة وجسدي النابض بالعشب الذي ازرقّ سيخترق حشود النمل والشهداء، ألوّح لأبي وجيرانه في مقبرة الأسوار المهدّمة، أخطأت دمشق أو أخطأتني، وما عادت تتنامى فيّ وتتسلّل هاربة من الضجيج إلى أردية الماء، وفي الطريق إلى ما لست أدري، حيث الهذيانات تنسحب وتعلن البرودة، كان رجلًا، صباحًا، الرجل مقوّس الظهر، جلست في جواره، طال الصمت... بيننا:

– ماذا تنتظر؟

سألته.

– الملكة.

أجاب.

خرج صوته دافئًا من أعماقه، وسألني:

– أنت أيضًا تنتظرها؟

– لماذا أيضًا؟... هل هناك من ينتظرها غيري؟

ضحكت.

ضحك مستهزئًا، أشار بيده إلى طابور طويل، أجساد مصطفة باستقامة ومحدّقة في التراب.

– كلّهم عشاق الملكة.

– من هؤلاء؟

– أولاد...

– وأنت؟ من أنت؟

غامت عيناه فجأة، انطفأت نظراته، تمادى قليلًا واستطال، تنفّست أضلاعه رائحة الصباح ثمّ فتح ذراعيه واحتضن شيئًا لم ألحظه:

– هل رأيت طيفها؟

– طيف من؟...

– طيف الملكة.

حاجبان متوثّبان وعيناه لامعتان، والكلام من شفتيه تساقط كحقيقة لا تقبل الشكّ:

– ...

– لقد احتضنته، ولكنّني لم أمسك به.

قال:

– ومنذ متى تحتضنه؟...

– منذ ألف عام.

ضحك بخبث، وقال.

– ألف عام؟

امتدّ الصمت بيننا طويلًا، على الجانبين وعلى طول الرصيف رجال يثقبون الأرض بنظراتهم، ينتظرون الأطياف، وكانت امرأة تقف أمام كلّ واحد منهم تقذف إلى حضنه بوردة حمراء طويلة، ذات عينين مثقلتين بالندم وقفت أمامي، رأسها يلتصق بالسماء وتضاريسها مثقلة بالثمار، تجاوزتني وحدّقتُ في عينيها، تطاولتُ إلى بشرتها الحليبية وقذفت بالوردة إلى الرجل الذي تلقّفها بكبرياء وفرح، تابعت طريقها إلى الآخر، وحدي من دون وردة ومن دونها، تجاوزتِ الأخير وتمدّدتُ تحت نافورة الساحة، تحت ظلالها، نهض الرجل الأخير أوّلًا، تعرّى من ثيابه واضطجع قرب المرأة الموغلة في جذر النبات، حدّق طويلًا في الرقبة الحليبية الصافية واقترب من الشفتين، غاب في النشوة والمرأة ترتمي على الأطراف وتتدحرج، تنفلت من شفتيه وتعود إلى حيث يداه، نهضت المرأة مهرجانًا للذّة، تعرّت ببطء وباحتفالية رمت ثوبها أوّلًا وتناهت إلى أسماعي أصوات ينابيعها الصافية، الرجل الأخير قدّم الوردة للمرأة ففرستها بين نهديها وتمدّدت بجسدها الشاهق، بيديها الملوكيتين، بأصابعها وذراعيها اللامرئية احتضنت الرجل وغابا، نهض طابور الرجال وتحرّك، مرّوا جميعًا قرب الجسدين الملتحمين في اللذّة اللامتناهية، قذفوا ورودهم وتفرّقوا في الشوارع التي لم أعرف أنّها موجودة وأنا قرب الرجل العاشق الطيف متلبّسًا أسباب خيبتي منتعظًا من لذّة رؤية امرأة بهذه الفتنة وهذا العري الشاهق.

– أيّها الرجل،

– ...

– أيّها الصديق،

– ...

لم يسمع صوتي، ورأيت بصيص الفرح في عينيه، يتدافع مع الآخرين ليرمي وردته.

– يا سيّدي، قل لي هل هذه هي الملكة؟

– الملكة طيف.

– الملكة ليست طيفًا، وصورتها في جيبي...

مددت يدي بالصورة، إلّا أنّه ضحك هازئًا من بياض الورقة التي بسطتها أمام عينيه.

– ارحل من هنا يا ولد.

نظرت إلى الصورة وأفزعني البياض، البياض سيّد المساحة، نفضت الغبار عن عينيّ وحدّقت مليًا في الصورة الممحوّة وبكيت، بكيت، الرجل والمرأة عاريان يغيبان في النشوة، صوتاهما أغرقا المدينة الساكنة كالحجر والرجال يرجمونهما بالورد، كلّ رجل بوردته حتى غابا تحت بساط طويل من الاحمرار والاخضرار ولم يعد يحسّ إلّا بأنفاسهما الشذيّة التي عبق بها المكان، وقفت جانب الطابور وفي يدي الصورة البيضاء، بكيت، بكيت حتى تبلّلت وتعفّنت الرغبة في داخلي، داخلي المتهدّم، الطابور يرمي الورد على رجل وامرأة تحت هذا الكفن يلهثان بمجد لحظاتهما. كسرت السلالم، تجرّدت من أحلامي وعلى العتبات تابعت بكائي، الملكة طيف وأنا حارس الخديعة وابن سلالة الوهم، ابن الأقفال الصدئة وقرون الغبار السبعة، تمزّقت جيوبي وأنا مبتلّ بشذاها، بعبقها، أعدت الصورة الممحوّة إلى جيبي وتشهّيت التجوال في مدينة لا أعرفها، لا تعرفني، أجلس عند نواصيها كمتشرّد أو كشحّاذ، أعبق في حفيفها وأغازل نساءها جهرًا، أغتسل بمائها وأتمدّد في المساء على عشبها، أغنّي لامرأة لا تأتي ولأمّ تخبط الأرض، تبيع المهرّبات وتتدلّى من ثيابها الأحزان، بحثت عن الروائح المكدّسة في ذاكرتي ودهمني الغبار، الغبار، الغبار

غطى روحي المثقوبة وطوّقتني قرقعة السيوف الهازلة الآن بجحافل الصليبيين المتمركزين على شواطئ عكّا، يشعلون النيران ويلتهمون السفود بانتظار مفاتيح القدس، حيث كلّ شيء معدّ لاستقبال الغزاة، الأناشيد وأكاليل الغار، الرزّ المنهمر من النوافذ وزغردة النساء العربيات، الوقت أكذوبة والساعات معطّلة، أرمي القباب بسخطي وأدرك أنّ المتاهة متلبّسة بما تبقّى منّي، وما تبقّى مني عمود فقري منخور يبحث عن أكفان أبيه ومنيّ الرجال في جوف أمه، أدرك أنّني معزول عن لغة الأشياء، كأنّني ضيّعت طريق دمشق وأنا في دمشق، كأنّني نسيت درب معاوية وسقطت لتعبرني جحافل العثمانيين ثمّ الفرنسيين وتدوسني البرلمانات المتاجرة بالمواشي والموشّاة بالدبق، الساعات معطّلة والوقت أكذوبة، أسقط في الطمي وما من أحد يمدّ يده لأنهض وأغتسل مرّة أخرى بصراخ التلاميذ عند مفارق السارية، فمن ينقذ صراخي المعطّل ويجعل فراري أرجوحة للوقت المغتسل بالأقحوان والورد الذابل في صباح المدينة؟ يداي في جيبي وصدري مشرّع بلا مبالاة لحراب رجال الملك المترصّدين خطواتي الشمعية وفي طريق الفراغ، أرتمي على ظلالي وأحيك المسوح حولي كي أحدّد شكل الجغرافيا التي أحبّ وطعم الأمكنة، حولي الانهدامات الصاعقة ووجوه الناس الممصوصة، روائح الغرباء الذين يحبّون دمشق، في أذنيّ صمم يمنعني من سماع حفيف الأشجار المزيّف، أتابع التجوال بين الخرائب وأستدلّ على طريق أمي مرّة أخرى، أمامها المهرّبات وصوتها ينادي، أمي تبيع المهرّبات وأحد إخوتي الذين لا أعرفهم يحضرها من لبنان أخي الذي ذهب في حرب طويلة، ولم يعد إلّا لإيصال المهرّبات إلى باب بيت أمي، يعود مرّة أخرى عبر الحدود التي يحفظ طرقاتها العلنية والسرّية، لم يعد من حربه إلّا بعد أن أصبحت أمي بائعة الشاي Lipton والدخان الأميركي وفساتين

النوم للنساء اللواتي لا يحبلن إلّا إذا داسهنّ الرجل الملتحي المعمّم بالأقمشة الخضراء المهرّبة، جلست على حجر جانب أمي التي تخبّئ النقود في صدرها بين نهديها المترهّلين قليلًا، يمرّ رجال الملك من أمامي ويتغامزون مع أمي، يهمسون لها بشيء فاجر وتضحك، تبصق عليهم تودّدًا فيسيل اللعاب الأصفر على وجهي، أرتعش تحت رذاذها وفي زوبعة ثوبها تلفّني، أشمّ رائحة عرقها وهي تتمايل عارضة بضائعها أمام الوجوه اللامبالية والعابرة بقرف إلى اللامكان. تتنبّه أمي إلى جلوسي قريبًا منها، تنظر إليّ وتضحك فأرى أسنانها الصفراء المكتملة، تمسّد شعري فأشعر حقًّا بأنّ لي أمًّا، في المساء أمسكت بيدي وجذبتني خلفها، نعبر شارعًا وألتقط ما تساقط من صدرها، دلفنا إلى بيت فاحت منه رائحة الأنين، الفسحة مضاءة بقنديل معلّق على غصن شجرة وحيدة، استقبلتنا امرأة لم أستطع تبيان ملامحها، قرأت أمي ارتباكي وخوفي من الضياع في بلاطات الممرّ، ربّتت كتفي ودخلت الحمّام، خرير المياه أنعش أعماقي اليابسة وذكّرني بطرطشة الماء في عتبة بيتنا، حيث أبي الذي صفّ زجاجات الغبار على رفوف الإصطبل وخرج محمولًا على باب، خرجت أمي من الحمّام نضرة، طلت وجهها بالأصباغ فتذكّرت أغنيات منسية مدفونة في الأعماق، قادتني إلى المدينة المظلمة، وفي الساحات المرشوشة بالضوء تبخّرت، قاذفة بيدي وهي تقول:

— اذهب... ابحث عن الملكة.

— ...

أردت أن أحادثها، أن أقول لها أنّني تغلغلت في لحاءات الشجر وصمت النوافذ في التراب وقلقلة المفتاح ولم أجد ظلالها، ولم أتذوّق طعم حظوتها، أن أقول لها أنّ الملكة طيف وصورة ممحوّة. تعبت يا

امي، نعبت. لكنّ لساني أصيب بالخرس، وطأت البلاط ووجدتها تتابط ذراع رجل مشيرة إليّ:

– الجهات منفاك، ابحث عنها واختبئ، رجال الملك يبحثون عنك.

وحيدًا في ليل المدينة، التي لم نرحب ببعضنا بعضًا، في دمشق، والليل، ودمشق في الليل خطوات مسروقة من الجهر، ووجه مرشوش بالزئبق، أشجار معطوبة ونسمات جافّة من دون نهر، من دون ياسمين، نوافذ مظلمة ووجوه مربعة، دمشق في عناق الصفر تكيّة مفتوحة لولاة صدئين ورجال مزنّرين بالحرام والتهلكة، مهرّبين يطفئون العيون ويترنّمون بالأناشيد الوطنية في طريقهم إلى حرب مؤجّلة دومًا وإلى حدود مفتوحة للغزاة من البرامكة إلى الصالحية، إلى العفيف، إلى الشيخ محيي الدين، إلى ركن الدين، إلى الطرق المفتوحة سرت، سرت وصوت أمي من زحمة النسيان يهتف:

– ستبقى يا خالد طائشًا وطفلًا وابن حرام.

IV

الأمكنة تحيك أشراكها وتخبّئ تفاصيلها المقيتة. أترك ورائي دمشق وذكرى بوّاباتها المقفلة، أسمع صوت السلاسل في أيدي رجال الملك وترنّ خطواتهم خلفي على الإسفلت اللامع، أستدير ورائي وفي الليل الذي ضمّني أترك كلّ شيء خلفي، رجال الطيف وأكفان الورد، رجال الملك وأمي مع بضائعها المهرّبة، شوارع دمشق وشرفات الفضيلة، مدركًا أنّ الساعات معطّلة والوقت أكذوبة.

بعد قرون لا أعرف عددها، بعد ظهيرات حامضة وقفت أمام بوّابة مدينة غريبة لا أعرف اسمها، دخلت مع الداخلين وتطهّرت بالغربة والمجاهيل، في المياه العذبة غسلت قدمي المتقرّحة وانتشيت وأنا أدلّي قدمي وتغمرني البرودة والنظافة التي محت أدراني، وعلى الرمل كتبت «أحبّ المدن المجهولة».

اقتربت من امرأة غمزتني، وتلفّعت بعطرها، قالت:

– أنت غريب، وسفرك كان طويلًا.

– كيف عرفتِ؟

– وجهك مثلوم وروحك متعبة.

– هل أنت غريبة؟

– لا، أنا ابنة هذه المدينة، عمَّ تبحث؟

– عن الملكة.

– أيّ ملكة؟

– عن ربّة الينابيع ذات الجسد الأخضر.

– لن تجدها.

لم تمض المرأة ولم أتحرّك نحوها، وقفنا صامتين زمنًا كلّ ينظر في جهة ويبحث عن الوقت الأكذوبة، تحلّلت من أصدافي ورفعت لشروخي أوتادها، مشت المرأة ومشيت خلفها وقرب غابة صغيرة، قالت:

– هل تدخل، وتهديني بذرتك؟

– ولكنّني متعب، ولا أعرف شيئًا عن مدينتكم.

– مدينتنا مدينة الأمان، انظر العناقيد مدلّاة في الشوارع والثريّات على كلّ المداخل، ولا أحد ينام إلّا مبتهجًا ومسبّحًا باسم الملك العظيم.

– الأمان أكذوبة. وأنت ما اسمك؟

– ... سمّني ما شئت... الأسماء ليست مهمّة في هذه المدينة، ومن يشرب من مائنا وينام ليلة في أسرّتنا يصبح منّا، ويصعب عليه الخروج.

في الغابة الصغيرة، كانت الأشجار عالية والمروج خضراء، كانت الفسحات مضاءة، كان الآخرون متمدّدين وجالسين على العشب، على المقاعد وعلى الصخور يتهامسون، رجالًا ونساء، أطفالًا وشيوخًا، سارت المرأة أمامي وتبعتها متمتّعًا برغبة مداعبة امرأة لا أعرف اسمها وكم استهوتني لعبة المجاهيل، جلسنا تحت شجرة بعيدًا من الأعين قالت لي المرأة:

– من أين أنت؟

– من....؟

نسيت اسمي واسم مدينتي، تلعثمت قليلًا، وتلكّأت قبل أن تنقذني:

– النسيان نعمة.

يدها الطرية أوغلت في أزرار قميصي وابتهجت بملامسة لحمي العاري، توقّفت عند بطني وأنا كالرماد، كالحجر، لا أبتهج بامرأة تمنحني جسدها وتتغلغل في مسامّي، المرأة ارتمت في حضني وكشفت عن نهد مستدير وحلمة مرتفعة تعطّلت يدي عن الفرار وكانت القناديل تشتعل واحدًا تلو الآخر.

«إنّها مدينة القناديل... تعال... ادخل فيّ قبل أن تبدأ المدينة بالاشتعال...».

قالت وهي تتغلغل في حضني، حاولت أن أتذكّر شكلًا قديمًا عبر ذاكرتي لمضاجعة أنثى، لم أتذكّر سوى الانتظار أمام البوّابات المقفلة ولملمة الأجداث من تحت أنقاض الجسر الذي انهار على رأس زوجتي ذات يوم.

– ولماذا تشتعل المدينة.

قلت للمرأة وأنا أتلمس ما بين فخذيها علّ مسامّي تنزّ عرقًا، وتتوهّج أطراف أصابعي، قرنًا من الصمت، وخطوات من ضباب وما بيني وبين المرأة كالذي بين النار والماء، كنتُ ماء وكانت تصهل، تشبّ محترقة، تتمرّغ على العشب وتدخل وتدًا في فرجها، وأنا كأبله أستدير حولي وأراقب المرأة التي بدأت بالتراخي على العشب، قامت مبتلّة بالندى ولبست ثيابها.

– ستشتعل المدينة بعد قليل، الحق البوّابة قبل أن تغلق وإلّا أصبحت منّا، انهض.

سرت في الشارع خلف عجيزتها الهادئة خجلًا من عجزي، وفي الطريق إلى البوّابة كانت العناقيد مدلّاة، حاملة الجماجم وأطراف بشر مقتولين، كدت أتقيّأ وأنا أرى الرجال يرفعون هاماتهم ليعلّقوا جثثًا بالخطاطيف.

– لماذا عناقيدكم؟...

ولم تمهلني المرأة حتى أكمل جملتي المرتبكة.

– إنّهم أعداء الملك، إنّهم غرباء، ناموا ليلة وعجزوا عن مضاجعتنا.

– ...

ارتعشت ركبتاي وأنا أمام البوّابة التي تفضي إلى طرقات متشابكة، نظرت في عينيّ المرأة ممتنًّا وأدركت بعد أن أصبحت خارج البوّابة أنّها طيف، وتذكّرت أنّ الملكة طيف، وطابور رجال يرمون الورد على عاشقين، صرخت ملء البراري:

– تمهّلوا قليلًا أريد أن أنام، أريد الملكة، وبقيت أمام البوّابة سبعة قرون أنتظر أن تفتح...

مرّت جحافل الغزاة وأنا ما زلت أقطر غبارًا ودمامل، وتعرّش فوق قدمي الغنغرينا، بكيت، بكيت حتى ابتلّت الأرض بالموت، انتصبت قامات رجال الشمع في ساحات المدن حينذاك أدركت أنّني في عناق الصفر، أرديتي تهطل أصدافًا وأنا أتشبّث بالرمال سبعة قرون، ومن البوابة نفسها التي خرج منها أبي على باب خشبي، مدثّرًا بحرام صوفي ومحمولًا على أكتاف الرجال، من تحت القنطرة عبرت متعبًا، فرحًا بوصولي إلى ذاكرة الخدوش المشتعلة، كانت خالتي تحت المزراب بثوبها الشفّاف تبتهل للمطر أن يهطل وكان سروالها الفوسفوري يلتمع تحت أشعّة الشمس وتبتهج الحجارة بتراقص الألوان المتداخلة، تبتهل خالتي ولا تنتبه لمجيئي، أصعد إلى الغرفة

التي ما زالت ترشح بأنفاس النقّاش التركي وتدلّي ثديي خالتي بين يديه يدعكهما، يقلّبهما وينام بينهما كقطّ أليف، أمام مرآة خالتي أقف كأنّني نسيت أنّ لانعكاس وجهي قوّة الذهول، في الليل تكتشف خالتي أنّني أسكن الظلال وتشمّ رائحة تقرّحاتي فتقف أمام المرآة ونمذ حلمتها المتشقّقة لسطح المرآة الصقيل فأخرج وألامس الشقوق الجافّة، تبتهج وتنبعث أصوات رغبتها من الأعماق الدفينة. أخرج والأبواب ورائي مفتوحة، ودومًا كما أنا دومًا أفتح الباب ورائي وأخلع من قدميّ أخطاء الحذائين، تسلّلت على الدرج المتآكل بصمت، كانت الغرفة الأخرى تغطّ في صمت، على النافذة فوق بوّابة الإصطبل أبي كان يجلس مراقبًا البغال وهي تلتهم الشعير والتبن ويملأ زجاجاته بالغبار، كان يحدّق في السقف ويعدّ أخشابه المهترئة المسكونة باليعاسيب وروائح العفن، يصل إلى نهاية العدّ مكتشفًا أنّ الأخشاب في كلّ يوم تزيد أو تنقص، يفرك عينيه وينتظر أن تهدأ أصوات الدربكة في الغرفة العلويّة، حيث أمي ومن معها يصدرن أصواتًا تهزّ الفراغ الساكن، دخلت الإصطبل واستقبلتني رائحة أعرفها، نزيز جلود البغال وطعم مسامّهم بحموضة كنت أتحسّسها بأصابعي حين أضع السرج وألجم البغل مهيّئه لدروب طويلة في البراري، حيث كلّ شيء معدّ للقفز بحرّية والخلاص تمامًا، المعالف متعفّنة ورائحة بول البغال تعبق في المكان كأنّها منذ آلاف السنين ساكنة ومجبولة مع طين الجدران، الشمس المتسلّلة من الباب ترسم بقعة على أرض الإصطبل وذرّات الغبار تتطاير في عمود مائل من الأرض نحو الفضاء، أدخل وأجلس على حافّة المعلف وأعرف أنّ البغال منذ زمن بعيد لم تعطس ويخرج من منخريها التبن الممزوج بالمخاط، أستطلع الزوايا والسقف، الأرضية والخدوش، وعلى الرفوف أمام عينيّ تصطفّ

زجاجات الغبار، واحدة أو ألف لا أعرف كم أحكم أبي إغلاقها كي لا يتسرّب دمه على الأرض الجافّة.

أنهض والرؤية أصبحت واضحة تمامًا، بأظافري أحفر الأرض، أقذف بالتراب والعرق لا يتصبّب منّي، أصل إلى الصندوق الذي خبّأته منذ سبعة قرون أخرجه، تفرح أصابعي بملامسة أصدافه التي بهتت، أخرجه وأمسك به ككنز، أحتضنه وأرفع رأسي لأنهض فأرى خالتي واقفة قربي تراقب ما بين يديّ، تضحك عيناها، تمدّ يدها مصافحة، حاضنة كفّي، جذبتني نحوها وقبّلتني فشممت رائحة جسدها النظيف، رائحة مسامّها:

– متى أتيت؟...

– منذ زمن بعيد.

– كيف تسلّلت أيّها؟...

وقفنا صامتين، نستطلع ما حولنا، تأمّلت نهديها الذاويين من فتحة ثوبها وعينيها الدائريتين الباحثتين عن معنى الأشياء، تشمّمت أنفاسها، لا أدري كم قرنًا وقفنا، امتدّ الصمت بيننا وشعرت بأنّ أعضائي توفّزت، رغبت في مضاجعتها والظهيرة على الباب تئزّ، مددت يدي إلى بقية أزرارها وتمدّدت خالتي على التبن، تمدّدتُ، وضعت الصندوق على الأرض وأغلقت الباب، وكان الأنين يتصاعد من خشبه، أظلم المكان، خالتي متمدّدة و... كانت زجاجات الغبار على الرفّ، خالتي تتلوّى بين فخذيّ، شاهقة بجسدها المتهالك على أعضائي، انتحبت وضمّتني إليها، هامسةً أن أدخل في أعضائها حتى النهاية لاهجةً باسم النقّاش التركي، مغمضة عينيها، وبعد... اكتشفت خالتي أنّني لست النقاش وأدركت أنا أنّها ليست الملكة، نهضت وفي عتبة غرفتها سمعت طشيش الماء.

جلست على حجر قرب بوّابة الإصطبل بين يديّ الصندوق الصغير المزيّن بالأصداف، نفضت الغبار عنه ورأيت مفتاحه متدلّيًا من قفله وتذكّرت أنّ لخالتي رائحة طيّبة ولفرجها شكل السفن الشراعية، لم تخرج خالتي طوال اليوم إلى فسحة الدار ولم تشعل الضوء في غرفتها، بقيت جالسًا، متمعّنًا في حدود الفضيحة، أيّ ارض ستدوسني؟ وأيّ رسن سيجرّني لتقذفني على المزابل؟ أخرجت صورة الملكة المتمدّدة، وفوجئت بأنّ الملامح قد عادت إلى الصورة البيضاء، تأمّلت الوجه المشعّ والأنف الملوكي، أحسست بعظامي فارغة وبصدري عابقًا بما لست أدري، المساء، الظلال، ظلال الأحجار والمزراب، زجاجات الغبار في الإصطبل وعلى الأرض كان سروال يشعّ بالفوسفور، أمسكت به واكتشفت أنّ خالتي نسيت سروالها الفوسفوري على التبن، أيقنت أنّني حقيقةً ضاجعتها، الصندوق في يدي وخالتي لم تخرج إلى فسحة الدار المعدّة لتهيّؤات الوحدة، وفي الليل لم أؤثّر بسوى صمتي، كان الباب أمام خطواتي مفتوحًا، باب غرفة خالتي، دخلت إلى العتبة وشممت رائحة عطر تعبق في فضاء الغرفة، خلعت حذائي واندسست في الفراش قرب خالتي التي كانت عارية تمامًا من دون ثياب ومن دون سروالها، عرّتني وعبقت في جسدي مرّة أخرى وأوغلت في الزمن. الزمن الأكذوبة. قبّلت الجسد الطري والقمتني نهديها، تمرّغت على جسدي وأمسكت بعضوي بين كفّيها مبتهلة لانتصابه، مبتهجة ولاهجة باسم النقّاش التركي، في الظلام الذي رحل، وفي الصباح بتّ غارقًا في سوائل الجسد الأنثوي، قالت خالتي:

ـ الملكة تنتظرك في آخر النفق.

ـ أيّ نفق؟...

– نفق خطواتك ابحث عنه، وستجده في بوّابة المدينة، هناك سيُقام لكما العرس.

– ورجال الملك؟...

– ستصبح من الحاشية وتتزوّجها.

– وأنتِ؟

– سأبقى هنا أنتظر المطر.

وفي الصباح المعتم، كانت فراغات جسدي تمتلئ بالحرام والإحساس بالخديعة، لبست ثيابي وخالتي ذات السروال الفوسفوري متلحّفة ملابسها ومتمدّدة في الفراش موجّهة نظرها إلى جهة لا تراني فيها وأنا أزرّر قميصي وأتهيّأ للرحيل، وقبل أن أفتح الباب تملّيت طويلًا في الجدران والمرآة ووجه خالتي الغائب المطلّ عليّ من جانبه، لمحت دمعة واحدة في عينيها، وفي جسدها كان العار يتجوّل مطالبًا بحصّته من النشوة، ودّعت الغرفة وفسحة الدار ولم أدخل غرفة أمي، ألقيت نظرة على زجاجات الغبار والسروال الفوسفوري المرمي على التبن في أرض الإصطبل.

حدّقت في المزراب المتشقّق والقنطرة، وعدت أعبر الدروب المؤدّية إلى المقبرة، حيث النرجس الأصفر وحزن الميّتين منّي، أحسست بالخواء وبحزن أبي، كان قبره مقفرًا ويتصاعد النحيب من شواهده، سرقت له بصلة زنبق من القبر المجاور وغرستها في ترابه، وعلى قبر النقّاش التركي كانت وردة حمراء تتوهّج عرفت أنّها من خالتي من طريقة وضعها قرب رأسه، تركت كلّ شيء ورائي، كلّ شيء، السماء المقفلة والبيادر المفتوحة للمطر ورغبات الرعيان. عبرت ولا أدري أنّ الجهات هي خديعة الجغرافيا، وحيدًا كما أنا دومًا، وعلى درب سليم الثاني سرت تحفّ بي الظهيرات وتصفعني مشاهد الفلّاحين في أراضيهم ناظرين إليّ ومتهامسين «هذا الذي ضاجع...».

كانت عيونهم تقدح كراهية، وأنا أقبض على صورة الملكة بيد، وفي اليد الأخرى يتدلّى الصندوق الخشبي المزيّن بالأصداف كأنه يرشدني إلى متاهتي، قرنًا أو سنة أو يومًا، حقيقة لا أدري لأنّ الشمس نفسها تشرق عليّ والسماء نفسها تظلّلني والغبار يغطّيني، أمام بوّابات حلب بدأ قلبي يتصاعد الدم فيه بعنفوان وبدأ وجهي يكتسي ظلالًا غضّة، بدأت أتنفس العبق من جهات المدينة، وبعد سبعة قرون دخلت نفقًا شاهدته أمامي، أو خطواتي هي التي حفرته وظلّلته، كانت أصواتًا غامضةً تنبعث منه، أصوات رقص وبكاء، أمي ومهاباتها ورجال الملك حولها، أبي وعاره، عاري وعار أختي، كلّ شيء مرسوم في الظلام وأنا أدخل، أدخل، أتوغّل، كان النفق مثيرًا، دخلته وعلى أريكة من حجر وتراب جلستُ، فتحت الصندوق الذي بيدي وبدأت أفرز الأوراق المختلطة أوراق الرجل الذي كنّا نركض خلفه أنا وأختي ونسمّيه «عمّي» وأوراقي، جلست وفي الظلام بدأت أقرأ.

دمشق 1990/12/30

حارس الخديعة — وحيدًا، كما أنا دومًا، لا أدخل من الأبواب المغلقة. يهدّني خروجي والأقمار في الليالي التي من نحاس مدلّاة على بوّابات دمشق. دمشق هاوية الانتظار وأسوار البلّور...

قريبًا من رائحة نسائها وبول رجالها، قريبًا من آخر انهداماتها، أقعى أمام بوّاباتها كابن آوى نسيته الوحشة واستبدّ به الشوق لعواء الذئاب الآن. الآن دمشق تشطرني:

– ابن الصدى أنت.

يأتيني صوت أمي المخاتل من آخر المدى، المدى المفتوح على احتمالات المعجزة التي تبخّرت من بين أثواب أمي العارية تحت ضوء القمر، ورجال الملك يصطادون السمك ويبعثرون رصاصهم على أسراب الطيور العابرة فتتساقط بين أحضان الفلّاحات المنتشرات في الحقول. طيور حمام برّي، طيور حجل من دون مناقير، من دون عيون وبأجنحة مظلمة فقط. رجال الملك يبحثون عن الرصاص الفارغ، عن درب أمي وحبل سرّتي ويتابعون الصيد والتدخين والكفر وقذف المنيّ إلى مياه النهر.

صوت أمي المختلط بصرير أبواب دمشق التي لم تفتح لي يناديني:

– انتظر سبعة قرون.

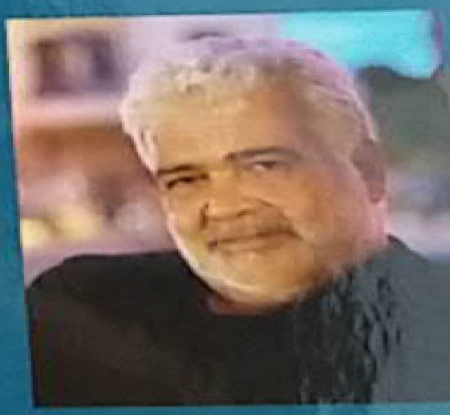

خالد خليفة — كاتب سيناريو وروائي سوري (مواليد حلب، 1964) ترجمت أعماله إلى الكثير من اللغات. في رصيده ستّ روايات: «حارس الخديعة» (1993)، «دفاتر القرباط» (2000)، «مديح الكراهية» (2006) التي وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة البوكر العربيّة، «لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة» (2013) التي وصلت أيضًا إلى القائمة القصيرة لجائزة البوكر وحازت جائزة نجيب محفوظ لعام 2013، «الموت عمل شاق» (2016)، و«لم يصلّ عليهم أحد» (2019) التي أدرجت على القائمة الطويلة لجائزة البوكر. للكاتب أيضًا عدد من المسلسلات التلفزيونيّة منها «سيرة آل الجلالي» (1999) ومسلسل «هدوء نسبي» (2009).

ISBN 978-614-469-519-7

نوفل هي دمغة الناشر